قصص من العالم الآخر 1

سارق الأبد

بقلم: كليف باركر

ترجمة: عمرو خيري

الناشران: دار ليلى – دايموند بوك

هذه السلسلة؛ تنقلك بين آفاق الأدب العالمي، إلى حيث عوالم أخرى لا نحياها ، وحيث تلتقي بنوع واحد فقط من الأدب.. لكنه نوع خاص جداً..

أدب الرعب..

حيث ترتحل بين مصاصي الدماء، والمذؤبين، وسارقي الأزمان، وصانعي الوحوش، و كل ما يمكن أن يثير خوفك، و لم تتوقعه في أسوأ أحلامك..

كل هذا و أكثر، نقدمه لك في إطار متميز من الترجمة الأمينة والدقيقة، حيث ننقل لك عالمًا بعيدًا، بين يديك.

عزيزي القارئ..

إنها ليست أي قصص..

بل هي قصصٌ من العالم الآخر.

* * *

محمد سامي

قصص من العالم الآخر

1

سارق الأبد

قصص من العالم الآخر

●

أروع قصص الرعب العالمي
بين يديك
في ترجمة متميزة.

●

مراجـــعة:

أ. تامر فتحي

●

إشراف عام:

أ. محمد سامي – م. سند راشد دخيل

●

رقم الإيداع: 2006/11272

جمهورية مصر العربية :
دار ليلـــــى للنـــــشر- هـــــاتف : 0020123885295 - الموقـــــع : www.darlila.com
الكويت:
دايمونـــد بـــوك - هـــاتف: 009657555439 - الموقـــع: www.diamond-book.com

1- التهام نصف هارفي

التهم الوحش الرمادي الكبير - فبراير- "هارفي سويك" حيًا.

ها هو.. مدفون في بطن ذلك الشهر الخانق، متسائلاً إذا كان سيجد مخرجًا من هذه المتاهة الباردة التي تفصله عن عيد الفصح.

لم يتفاعل كثيرًا. على الأرجح سيستسلم مع زحف الساعات عليه حتى إنه وذات يوم سينسى التنفس. ثم ربما يتساءل الناس حينها لماذا هلك ولد صغير هكذا في ريعان شبابه. وسيصبح لغزًا شهيرًا، ولن يحله أحد حتى يقرر محقق عظيم ما، إعادة تمثيل يوم من حياة "هارفي".

ثم، ووقتها فقط، ستتكشف الحقيقة المتجهمة السوداء. سيتتبع المحقق أولاً خطى "هارفي" اليومية إلى المدرسة كل صباح، ويدور في الشوارع المقبضة. ثم سيجلس على مكتب "هارفي"، وينصت إلى دندنة معلمة التاريخ الكئيبة وإلى معلم العلوم، ويتساءل كيف نجح الولد البطل من إبقاء عينيه مفتوحتين. وأخيرًا، مع تحول اليوم الضائع إلى الغروب، سيتعقب خطاه إلى المنزل، ومع وصوله إلى حيث خرج صباحًا، يسأله الناس لماذا هلك ولد لطيف مثل "هارفي"، فيهز رأسه ويقول: "الإجابة بسيطة".

سيقول الجمع الذي أُثيرَ فضوله: "حقا؟ أخبرنا كيف".

سيجيب المحقق وهو يمسح دمعته: "التهم فبراير الوحش الرمادي الكبير هارفي سويك".

كان شهرًا وحشًا، وهذا أكيد، شهرًا رهيبًا وموحشًا. فقد بهتت ذكريات عيد الكريسماس ومتعه العذبة والحلوة في ذاكرة "هارفي"، ووعد الصيف بالقدوم ما زال ضعيفًا وبعيدًا كأنه أسطوري الوجود. ستحل عطلة الربيع بالطبع، لكن كم تبعد؟ بعد خمسة أسابيع؟ ستة؟، لم يكن قويًا في الرياضيات؛ لذا لم يتماد في إزعاج نفسه بمحاولة حساب الأيام. كان فقط يعرف أن قبل قدوم الشمس لتنقذه بكثير، سيكون في بطن الوحش.

- "لا يجب أن تضيع وقتك بالجلوس هنا هكذا". كذا قالت أمه حين دخلت ووجدته يراقب قطرات المطر تطارد بعضها على زجاج نافذة حجرته.

قال "هارفي" دون أن يلتفت إليها: "ليس عندي ما هو أفضل لأفعله".

قالت أمه: "حسنًا، يمكنك إذن المساعدة".

ارتجف "هارفي". المساعدة؟ هذه كلمة مرادفة للعمل الشاق. هب ناهضًا، وانطلق في سيل من الأعذار.. لم يفعل هذا، ولم يؤد ذاك.. لكن الوقت تأخر.

قالت أمه: "يمكنك البدء بترتيب هذه الحجرة".

- "لكن".

- "لا تجلس مودعًا أيامك هكذا يا حبيبي. الحياة قصيرة".

- "لكن.."

- "أنت ولد لطيف".

ثم تركته. وهو يغمغم لنفسه ويدور بعينيه في الحجرة من حوله. لم تكن غير مرتبة. كانت هناك لعبة أو اثنتان مبعثرتان حوله.. وبعض الأدراج المفتوحة، وملابس تطل منها.. كانت تبدو جيدة.

قال لنفسه: "أنا في العاشرة من عمري -ولأنه بلا أخوة ولا أخوات كان يكلم نفسه كثيرًا- أعني لم أعد طفلاً. ليس عليّ ترتيب حجرتي لأنها أملت عليّ هذا. شيء ممل".

قال وهو يسير إلى المرآة ويضغط عليها: "أريد.. أريد.."

قال له الولد ذو الشعر بلون القش والأنف الأفطس والعيون البنية الذي طل عليه من المرآة، وهو يهز رأسه:

"ماذا أريد؟ لا أعرف ماذا أريد.. أعرف فقط أنني سأموت إن لم أحظ ببعض المرح. حقًا! سأموت!"

وهو يتكلم اهتزت النافذة. وهبت الرياح بقوة عليها.. ثم هبة ثانية، وثالثة، وبالرغم من أن "هارفي" لم يذكر أن النافذة كانت مفتوحة ولو مقدار بوصة، فقد انفتحت عن آخرها. ضرب وجهه المطر البارد. وهو يضيق عينيه سار إلى النافذة وجاهد لإغلاقها، وتأكد أن مصراعها في مكانه الصحيح هذه المرة.

حركت الرياح مصباحه، وعندما التفت ثانية وجد الحجرة كلها تدور حوله. في لحظة ما كان الضوء يبهر عينيه، وفي التالية يغمر الحائط المقابل. لكن بين إبهار العين وغمر الحائط أضاء منتصف حجرته، وهناك كان.. ينفض مياه المطر عن قبعته.. شخص غريب!

بدا مسالمًا. لم يكن أطول من "هارفي" سوى بست بوصات، وقامته هزيلة، وجلده مصفر.

كان يرتدي سترة تنكرية، ونظارة، وعلى وجهه ابتسامة سخية.

سأله "هارفي": "من أنت؟" متسائلاً كيف يمكنه الوصول إلى الباب عبر هذا الدخيل.

رد عليه الرجل: "لا تتوتر".. وهو يخلع إحدى فردتي قفازه الجلدي، ويمسك بيد "هارفي" ويصافحها، ليضيف: "اسمي ريكتوس. وأنت هارفي سويك. ألست كذلك؟"

- "أجل".

- "حسبت للحظة أنني دخلت منزلاً عن طريق الخطأ".

لم يتمكن "هارفي" من رفع نظره عن ابتسامة "ريكتوس".

كانت واسعة حتى لتكاد سمكة القرش تستحي منها، بفمه المشغول بصفين ممتازين من الأسنان اللامعة.

خلع "ريكتوس" نظارته وأخرج منديلاً من جيب سترته المنقوعة، ثم بدأ يمسح عنها قطرات المطر. فانبعث منه أو من منديله رائحة بعيدة كل البعد عن الروائح العطرية، بل كانت في الحقيقة غازية.

قال "ريكتوس" لـ"هارفي": "الديك أسئلة؟، أرى هذا".

- "أجل".

- "سل إذن. ليس عندي ما أخفيه".

- "كيف دخلت مثلاً؟"

- "من النافذة بالطبع".

- "إنها مرتفعة كثيرًا عن مستوى الشارع".

- "ليست كذلك إذا كنت تطير".

- "تطير؟!"

- "بالطبع. وإلا كيف تتخيل أن أخوض طريقي في ليلة كهذه؟ إما بالطيران أو في قارب تجديف. علينا نحن قصار القامة الحرص عندما تمطر بشدة هكذا. قد تأخذ خطوة متهورة فتجد نفسك تسبح". ثم حدق في "هارفي" متسائلاً: "هل يمكنك السباحة؟"

بادره "هارفي" بالرد: "في الصيف"، وهو يسعى للعودة إلى موضوع الطيران.

لكن "ريكتوس" وجّه الحوار في اتجاه مختلف تمامًا، قائلاً: "في ليالٍ كهذه لا يبدو لك أن الصيف التالي سيأتي أبدًا.. أليس كذلك؟"

قال "هارفي": "بالطبع".

- "أتعرف؟ لقد سمعتك تتنهد على مسافة ميل من هنا، وقلت لنفسي: ها هو ذا ولد يحتاج لإجازة" ثم نظر إلى ساعته وأضاف: "إذا كان لديك وقت لها".

- "الوقت؟"

- "وقت لرحلة يا ولد، لرحلة.. أنت بحاجة إلى مغامرة يا سويك الصغير. في مكان ما.. خارج هذا العالم".

- "كيف سمعتني أتنهد من على مسافة ميل من هنا؟" أراد "هارفي" أن يعرف.

- "ولماذا تهتم؟ سمعتك. هذا هو المهم".

- "هل هذا نوع من السحر؟"

- "ربما".

- "لماذا لا تخبرني؟"

نظر "ريكتوس" إلى "هارفي" نظرة نافذة وقال: "أعتقد أنك كثير الأسئلة لدرجة لا تفيدك، هذا هو السبب" ثم وابتسامته تتراجع قليلاً: "إذا لم تكن تريد المساعدة فأنا لا اهتمّ".

همَّ بالتحرك ناحية النافذة. وكانت الرياح تهب قوية عليها، وكأنها متلهفة على العودة وحمل راكبها بعيدًا.

قال "هارفي": "انتظر".

- "أنتظر ماذا؟"

- "أنا آسف. لن أطرح مزيدًا من الأسئلة".

توقف "ريكتوس"، ويده على مصراع النافذة وقال: "لا مزيد من الأسئلة؟"

قال "هارفي": "أعدك بهذا. قلت لك إنني آسف".

نظر "ريكتوس" ثانية إلى المطر وقال: "فعلاً، فعلاً. أعرف مكانًا أيامه مشمسة أبدًا.. ولياليه عامرة بالعجائب".

- "هل يمكنك أن تأخذني إليه؟"

- "قلت إنك لن تطرح أسئلة يا ولد. اتفقنا على هذا".

- "أجل. آسف".

- "لأنني متسامح؛ سأنسى أنك تكلمت. ودعني أقول لك: إذا كنت تريد أن أسأل لك، فسوف أعرف إن كان لديهم مكانًا إضافيًا شاغرًا لضيف آخر".

- "أود هذا".

قال "ريكتوس" وهو يفتح المصراع: "لا أضمن لك شيئًا".

هبت الرياح فجأة وضربت النافذة بقوة. وبدأ المصباح يؤرجح النور بجموح. صاح "ريكتوس" بصوت يعلو صخب الأمطار والرياح: "انتظرني".

همّ "هارفي" بسؤاله إذا كان سيعود قريبًا، لكنه تدارك نفسه في الوقت المناسب. قال "ريكتوس": "لا أسئلةَ يا ولد!" وهو يتكلم بدت الرياح وكأنها تملأ سترته. ارتفعت من حوله مثل بالون أسود، فُزج به فجأة خارج إفريز النافذة. صاح وهو يمضي: "الأسئلة تفسد العقل! أبق فمك مغلقًا وسوف أرى ما سيكون من نصيبك!".

وهكذا حملته الرياح بعيدًا، وارتفع البالون-السترة التي يرتديها عاليًا مثل قمر أسود في سماء ممطرة.

* * *

2- الطريق الخفي

لم يذكر "هارفي" شيئًا عن زائره الغريب لأي من أبويه، تحسبًا لأن يضعا مصاريع على النافذة لمنع "ريكتوس" من العودة للمنزل. لكن مشكلة إبقاء الزيارة سرًا هي أن بعد بضعة أيام بدأ "هارفي" يتساءل إذا كان قد تخيل كل هذا. لعله سقط نائمًا قرب النافذة.. هكذا قال لنفسه.. كان نائمًا ولم يكن "ريكتوس" سوى حلم.

لكنه أخذ يتمنى. قال "ريكتوس": "انتظرني" وهذا ما فعله "هارفي". أخذ يراقب نافذة حجرته. ومن على منضدته في المدرسة. بل إنه أخذ يراقب النافذة بعين مفتوحة وهو نائم على وسادته ليلاً. لكن "ريكتوس" لم يظهر.

وبعد أسبوع من الزيارة الأولى، حين بدأ أمل "هارفي" يقل، جاءته مكافأته على الانتظار. وهو في طريقه إلى المدرسة ذات صباح ضبابيّ سمع صوتًا فوق رأسه، وعندما رفع عينيه لينظر رأى "ريكتوس" يحلق فوقه نازلاً من بين السحب، وسترته منتفخة حوله ليبدو أكثر بدانة من الخنزير.

- "كيف حالك؟" هكذا قال وهو ينزل.

رد عليه "هارفي": "بدأت أظن أنك من اختراعي. كأنك حلم".

قال "ريكتوس" وابتسامته تتسع أكثر من ذي قبل: "هذا ما يشعر به الناس نحوي كثيرًا. خاصة النساء. أنت حلم تحقق، هكذا يقولون" ثم غمز بعينه وأضاف: "ومن أنا لأناقشهن؟ هل يعجبك حذائي؟"

نظر "هارفي" على حذاء "ريكتوس" اللامع الأزرق. كان غريبًا، وهكذا قال.

قال "ريكتوس": "منحني إياه الرئيس. إنه سعيد للغاية بزيارتك. إذن، هل أنت جاهز؟"

- "هاه.."

قال "ريكتوس": "لا فائدة من تضييع الوقت. ربما لا يجدوا لك مكانًا غدًا".

- "هل لي من سؤال واحد؟"

- "حسبتنا اتفقنا على..."

- "أعرف. لكن سؤال واحد".

- "حسنًا. سؤال واحد".

- "هل ذلك المكان بعيد عن هنا؟"

- "لا. إنه قرب البلدة".

- "إذن فلن أغيب سوى ساعتين عن المدرسة؟"

قال "ريكتوس": "هكذا أصبحا سؤالين".

- "لا. أنا فقط أفكر بصوتٍ عالٍ".

أصدر "ريكتوس" صوت احتجاج وقال: "انظر. أنا لست هنا لأحاول إقناعك بالغناء والرقص وكافة السبل. لدي صديق يسمى جايف وهو من يفعل

هذا. أما أنا فمبتسم. أنا أبتسم وأقول: تعال معي إلى بيت العطلة، وإذا لم تأتِ" هز رأسه وأضاف: "فهذا من سوء حظكَ".

ثم التفت وأدار ظهره لـ"هارفي".

قال "هارفي" محتجًا: "انتظر! أريد المجيء. لكن بعد قليل".

قال "ريكتوس": "يمكنك البقاء طالما أردت، أو قدر ما تشاء. كل ما أريده هو أن أبعد ذلك التعبير المقبض عن وجهك وأضع واحدة من هذه مكانه".. اتسعت ابتسامته أكثر من أي وقت.. "هل هناك جريمة في هذا؟"

قال "هارفي": "لا. هذه ليست جريمة. يسرني أنني وجدتك. حقـًا.

ثم قال لنفسه إنه حتى لو لم يحضر المدرسة هذا الصباح، فلن يخسر كثيرًا.

ربما ساعة أو اثنتين بعد الظهر كذلك. طالما سيعود إلى البيت في الثالثة أو الرابعة. قطعًا قبل حلول الظلام.

ثم قال لـ"ريكتوس": "أنا مستعد للذهاب. تفضل أمامي".

لم تكن "ميلساب" -البلدة التي قضى "هارفي" فيها حياته- كبيرة جدًا، وكان يحسب أنه رآها كلها عبر السنوات التي قضاها بها. لكنه سرعان ما خلف الشوارع التي يعرفها وراء ظهره، وبالرغم من أن "ريكتوس" كان يمضي بسرعة كبيرة، فإن "هارفي" حرص على تعليم الطريق بما يراه من علامات على الطريق، في حالة ما إذا أراد العودة لبيته وحده. محل جزار معلق أمامه خنزيرين على خطافين.. كنيسة ذات فناء مليء بمقابر غريبة، وتمثال

لجنرال ميت، مغطى من قبعته إلى قدميه بفضلات الحَمَام.. كل هذه المعالم وغيرها لاحظها وهو يمضي في طريقه.

وبينما هما يسيران أبقى "ريكتوس" حوارًا مفتوحًا بينهما. قال: "أكره الضباب! أكرهه بشدة! وسوف تهطل الأمطار بحلول الظهيرة. وقتها سنكون قد خرجنا من هنا بالطبع".. ثم انتقل من حكاية الأمطار إلى حالة الشوارع.. "انظر إلى هذه القمامة، في كل مكان على المماشي الجانبية للبيوت! يا للعار! ويا للطين! إنه يلوث حذائي!"

كان لديه الكثير ليقوله، لكنه لم يكن ليفيد بأي شيء، لذا وبعد برهة كف "هارفي" عن الإنصات. كم يبعد بيت العطلة.. بدأ يتساءل حائرًا. كان الضباب باردًا، وقدماه تؤلمانه. إن لم يصلا إليه قريبًا فسوف يعود.

قال "ريكتوس": "أعرف فيما تفكر".

- "أراهنك أنك لا تعرف".

- "أنت تظن أن كل هذه المسألة خدعة. تظن أن ريكتوس يقودك في جولة مجهولة ولن تصل في آخرها إلى شيء. أليس كذلك؟"

- "ربما.. قليلاً".

- حسنًا يا ولدي، لدي أخبار جيدة لك. انظر أمامك".

أشار بإصبعه، وعلى مسافة غير بعيدة كان هناك حائط طويل، كان طويلاً وممتدًا حتى إنه اختفى في الضباب إلى اليمين وإلى اليسار مع امتداده.

سأله "ريكتوس": "ماذا ترى؟"

أجابه "هارفي": "حائط" رغم أنه كلما دقق النظر فيه قل يقينه في ماهيته. بدت له الأحجار -التي كانت صلبة مع النظرة الأولى- كأنها تتغير وتتبدل، وكأنها منحوتة من الضباب نفسه، وتتراكم في شكل حائط لتمنع الأعين الفضولية من التطلع.

قال "هارفي": "يبدو كحائط .. لكنه ليس بحائط".

أجابه "ريكتوس" بإعجاب: "أنت دقيق الملاحظة. معظم الناس لا يرون غير نهاية مسدودة، فيحيدون عن طريقهم ويمشون في طريق آخر".

- "لكن ليس نحن".

- لا. ليس نحن. إننا سنمضي في طريقنا. أتعرف لماذا؟"

- "لأن بيت العطلة يقع على الجانب الآخر؟"

أجابه "ريكتوس": "يا لك من ولد معجزة! هذا صحيح تمامًا. بالمناسبة، هل تشعر بالجوع؟"

- "أتضور جوعًا".

- "هناك امرأة تنتظرك في البيت تسمى السيدة "جريفين"، ورغم أنها عجفاء فهي أعظم طاهيات أمريكا. أقسم لك بقبر خياط ثيابي. يمكنها طهي أي شيء تحلم بأكله. كل ما عليك هو أن تطلب منها. يا سلام على بيضها الشهيّ الكمال بعينه". ثم لعق شفتيه.

قال "هارفي": "لا أرى بوابة".

- "هذا لأنه لا توجد بوابة".

- "إذن كيف سندخل؟"

- " فقط امض في طريقك!"

وبسبب جوعه وفضوله فعل "هارفي" كما أمر "ريكتوس"، ومع اقترابه قيد ثلاث خطوات من الحائط هبت نسمة هواء دافئة برائحة الورد لتمرق بين الأحجار الشاهقة ولتقبل خده. كان دفئها جميلاً بعد سيره الطويل في الهواء البارد، فزاد من سرعته، ومد يده ليلمس الحائط وهو يقترب منه. بدا كأن الأحجار الضبابية تمتد إليه بدورها، لتلف أذرعها الناعمة الرمادية حول كتفيه، وتدخله عبر الحائط.

نظر خلفه، لكنّ الشارع الذي خطا عبره، بمماشيه الرمادية وسحبه الرمادية، كان قد اختفى. وتحت قدميه وجد عشبًا مرتفعًا مليئًا بالورود. وفوق رأسه كانت السماء زرقاء صيفية. وأمامه وعلى قمة مرتفع كبير، بيت ظهر لأول مرة في الأحلام.

لم ينتظر حتى يرى إذا كان "ريكتوس" سيتبعه أم لا، ولا تساءل كيف ذبح الوحش الرمادي الكبير فبراير ونهض هذا اليوم الدافئ مكانه. ندت عنه ضحكة كان "ريكتوس" ليفخر بها، وهرول أعلى المرتفع وإلى ظلال بيت الأحلام.

* * *

3 - متعة وقلق

قال "هارفي" لنفسه: يا لها من فكرة رائعة لو بنيت بيتًا مثل هذا. أرسي أساسه في أعماق الأرض وأبني طوابقه وجدرانه، وأقول: بنيت بيتًا من لا شيء. سيكون هذا لطيفًا.

لكنه لم يكن مكانًا مبهر الروعة أيضًا. لم يكن هناك سلالم رخامية، ولا أعمدة مزينة. كان بيتًا فخمًا بالقطع، لكن ليس في هذا ما يسيء. كان به أشياء كثيرة يفخر بها. فهو على ارتفاع أربعة طوابق، وفيه نوافذ أكثر مما يمكن لـ"هارفي" إحصاؤه. وكانت شرفته الأمامية واسعة، وكذلك السلالم التي تقود إليها عند الباب الأمامي، وكان سقفه المطرز بأحجار الاردواز منحدرًا ومكللاً بمداخن مدهشة وأعمدة لتفادي ألسنة البرق.

لكن أعلى نقطة فيه لم تكن مدخنة ولا عمود للبرق، بل دوارة اتجاه رياح كبيرة وجميلة التزيين، كان "هارفي" ينظر إليها عندما سمع الباب الأمامي يفتح وصوت يقول:

- "هارفي سويك بالطبع".

نظر لأسفل، وما زال شكل دوارة الرياح الأبيض يتراقص أمام عينيه، وعلى الشرفة الأمامية كانت امرأة تبدو معها جدته -أكبر شخص يعرفه- صغيرة السن. كان لها وجهًا يشبه كرة من عش العنكبوت، ومن فوقه شعرها (الذي يشبه هو الآخر بيت العنكبوت) يتساقط بغزارة كالقش. كانت عيناها صغيرتين، وفمها ضيق، ويداها معروقتين. لكن صوتها كان منغمًا، ومفرداتها مرحبة. قالت وهي تلتقط سلة من الزهور حديثة القطاف تركتها على السلم:

ـ "حسبتك لن تأتي.. وكان هذا ليحزنني. تعال! هناك طعام على المائدة. لابد أنك تتضور جوعًا".

قال "هارفي": "لا يمكنني البقاء طويلاً".

جاءه الرد: "عليك أن تفعل ما تشاء. أنا السيدة جريفين بالمناسبة".

ـ "أجل. ذكر ريكتوس هذا".

ـ "لعله لم يتعب أذنيك كثيرًا. إنه يحب صوته. وظله أيضًا".

تسلق "هارفي" إلى الشرفة ووقف أمام الباب المفتوح. كانت تلك هي لحظة اتخاذ القرار، وكان يعرف هذا وإن لم يكن واثقًا من السبب. قالت السيدة "جريفين" وهي تبعد شعرها العنكبوتي عن جبينها المقطب: "ادخل".

لكن "هارفي" وقف مترددًا، وربما كان ليدور ولا يخطو إلى المنزل أبدًا، لولا سماعه صوت ولد يصيح:

ـ "أمسكتك! أمسكتك!" وتبعه ضحك مجلجل.

قالت السيدة "جريفين": "ويندل. هل عدت لمطاردة القطط ثانية؟"

ارتفع صوت الضحك أكثر، وكان مليئًا بالمرح حتى إن "هارفي" عبر مدخل الباب وإلى المنزل حتى يرى وجه صاحب الصوت. لم يبحث عنه إلا قليلاً. فسرعان ما ظهر وجه ساذج متفاعل عند الطرف الآخر من الردهة. ثم اندفعت قطة بيضاء وبنية من بين ساقي الولد فانطلق يطاردها ثانية وهو يصيح ويضحك.

قالت السيدة "جريفين": "إنه ولد مجنون.. لكن كل القطط تحبه!"

كان المنزل أروع من الداخل عن خارجه. حتى وفي الرحلة القصيرة إلى المطبخ رأى "هارفي" ما يكفي ليقرر أن هذا هو المكان الذي تبنى منه الألعاب، والمغامرات والمطاردات. كان متاهة بلا بابين متشابهين. كان بيت كنز حيث أخفى قرصان شرير كنزه الملوث بالدماء. كان مهدًا للأبسطة التي يطيرها الجان، والصناديق المغلقة من قبل الطوفان، وبيض الوحوش التي نستها الأرض مغلق وينتظر حرارة الشمس ليفقس.

غمغم "هارفي" مخاطبًا نفسه: "إنه كامل!"

سمعت السيدة "جريفين" كلماته فقالت: "لا شيء كامل".

- "ولِمَ لا؟"

استطردت وهي تنزل إلى الورود التي قطفتها: "لأن الزمن يمر، وتجد الخنفساء والدودة طريقها إلى كل شيء عاجلاً أو آجلاً".

لدى سماعه هذا تساءل "هارفي" عن طبيعة الحزن الذي عرفته أو رأته السيدة "جريفين" حتى تصبح حزينة هكذا.

قالت وهي تغطي شجنها بابتسامة ضئيلة: "أنا آسفة.. أنت لم تأت إلى هنا لسماع تراتيم حزني. أتيت لتستمتع بوقتك، أليس كذلك؟"

قال "هارفي": "أظن هذا!".

- "إذن دعني أغريك ببعض المأكولات".

جلس "هارفي" إلى مائدة المطبخ، وخلال ستين ثانية كانت السيدة "جريفين" قد وضعت إثني عشر طبقًا من أطباق الطعام أمامه.. من

(الهامبرجر) و(الهوت دوج) والدجاج المحمر، وجبال من البطاطس المهروسة، والتفاح، والكريز، والفطائر، والآيس كريم، والكريمة المخفوق، والعنب، اليوسفي، وطبق من الفواكه التي لا يعرف لها اسمًا.

جلس ليأكل باستمتاع، وكان يلتهم شريحته الثانية من الفطير عندما دخلت فتاة صغيرة بوجه منمش وشعر أشقر مجعد وعينين كبيرتين زرقاوين.

قالت: "لابد أنك هارفي".

- "كيف عرفت؟"

- "أخبرني ويندل".

- "وكيف عرف؟"

هزت رأسها وقالت: "هذا ما سمعه. أنا لولو بالمناسبة".

- "هل وصلتِ منذ قليل؟"

- "لا. أنا هنا منذ دهور. قبل ويندل. لكن ليس قبل السيدة جريفين. لا أحد أقام هنا أكثر منها. أليس كذلك؟"

قالت السيدة "جريفين" ببعض الغموض: "تقريبًا. هل تريدين شيئًا تأكلينه يا حلوتي؟"

هزت "اللولو" رأسها وقالت: "لا. شكرًا. لا أشعر بالجوع حاليًا".

لكنها جلست أمام "هارفي"، وغمست إصبعها في فطيرته ثم لعقته.

سألته: "من دعاك إلى هنا؟"

- "رجل يدعى ريكتوس".

- "أه. صاحب الابتسامة؟"

- "هذا هو".

- "لديه أخت وأخين".

- "هل قابلتهم إذن؟"

اعترفت "الولو" قائلة: "ليس جميعهم. فهم ينفردون بأنفسهم. لكنك ستقابل واحدًا أو اثنين عاجلاً أو آجلاً".

قال "هارفي": "لا.. أظن أنني سأبقى هنا. أعني أن أمي وأبي لا يعرفان بأنني هنا".

أجابته "الولو": "بل يعرفان. لكنهما لم يقولا لك هذا".

أربك ما قالته "هارفي"، وأعلن عن ارتباكه فقالت "الولو": "اتصل بأبيك وأمك وسلهما".

تساءل: "هل يمكنني هذا؟"

أجابته السيدة "جريفين": "بالطبع يمكنك. التليفون في المدخل".

وهي تحمل إليه ملء ملعقة من الآيس كريم، قصد "هارفي" التليفون واتصل برقمه. في البداية سمع صوت طنين على الخط، وكأن الرياح تهب على الأسلاك. ثم ومع اعتدال الصوت سمع أمه تقول: "من هذا؟"

قال لها: " قبل أن تبدئي في الصياح.."

قالت أمه بصوت رقيق: "حبيبي.. هل وصلت؟"

- "وصلت؟"

- "أنت في بيت العطلة كما أتمنى".

- "أجل، فعلاً. لكن.."

- "حسن. كنت قلقة أن تضل طريقك. هل تحب الجو عندك؟"

قال "هارفي": "هل كنت تعرفين أنني ذاهب؟" وعينه تقابل عين "الولو".

حركت شفتيها وكأنها تقول: "قلت لك".

استطردت أمه قائلة: "بالطبع عرفنا. لقد دعونا السيد ريكتوس ليقود طريقك. كنت تبدو حزينًا أيها الحمل المسكين. حسبناك بحاجة لبعض المرح".

قال "هارفي" مصدومًا من تحول الأحداث هكذا: "حقًا؟"

مضت أمه في كلامها: "أردنا فقط أن تستمتع بوقتك. لذا يمكنك البقاء قدر ما تشاء".

قال: "وماذا عن المدرسة؟"

جاءه الرد: "أنت تستحق بعض الراحة. لا تقلق على أي شيء. فقط استمتع بوقتك".

- "سأفعل يا أمي".

- "وداعًا يا حبيبي".

- "وداعًا".

وعاد "هارفي" من المكالمة وهو يهز رأسه متعجبًا.

قال لـ"الولو": "كنت محقة. لقد رتبا كل شيء".

قالت "الولو": "إذن الآن لا تشعر بالذنب. أعتقد أن الوقت قد حان لترى المكان. ما رأيك؟"

وهكذا هرولت أمامه مبتعدة.

قالت السيدة "جريفين": "إذا كنت قد انتهيت من الأكل سأريك حجرتك".

- "أود هذا".

وقادت "هارفي" لأعلى السلم. وعند منبسط السلم، ولدى النافذة المغمورة بأشعة الشمس، كانت هناك قطة فروها بلون سماء خالية من السحب. قالت السيدة "جريفين": "هذه قطة زرقاء. رأيت قطة الشورية تلعب مع ويندل. لا أعرف أين قط الأنلة، لكنه سيجدك. فهو يحب الضيوف الجدد".

- "هل يحضر إلى هنا ناس كثيرون؟"

- "الأطفال فقط. أطفال مميزين للغاية مثلك ولولو وويندل. فالسيد هود لا يدعو أي أحد".

- "من السيد هود؟"

أجابته السيدة "جريفين": "الرجل الذي بنى بيت العطلة"

- "هل سأقابله هو الآخر؟"

بدت السيدة "جريفين" مضطربة من السؤال، وقالت: "ربما" وهي تحيد ببصرها عنه وتضيف: "لكنه رجل يحب الخصوصية للغاية".

وهكذا مضيا أعلى السلم، وقادت السيدة "جريفين" "هارفي" إلى جوار لوحات مرسومة في الردهة إلى حجرة في مؤخرة البيت. كانت تشرف على بستان فاكهة، والهواء الدافئ يحمل رائحة التفاح الطازج إلى الحجرة.

قالت السيدة "جريفين": "تبدو متعبًا يا حبيبي. ربما عليك أن ترقد قليلاً".

كان "هارفي" في العادة يكره النوم بعد الظهر.. فهو يذكره بالإصابة بالأنفلونزا، أو بالحصباء. لكن الوسادة بدت رطبة ومريحة، وعندما استأذنت السيدة "جريفين" قرر أن يرقد لدقائق قليلة فقط.

إما أنه كان متعبًا أكثر مما حسب، أو أن الهدوء والسكينة في البيت هما المسئولان عن نومه. أيًا كان، فقد أغمض عينيه حالما وضع رأسه على الوسادة. ولم يفتحهما حتى الصباح.

* * *

4 - موت بين الفصول

أشرقت الشمس لتوقظه بعد الفجر بقليل.. شعاع أبيض مباشر حط على جفنيه. نهض فزعًا، متسائلاً للحظة أي سرير هذا، وأي حجرة، وأي بيت. ثم عاودته ذكريات الأمس، وأدرك أنه قد نام من بعد الظهر إلى الصباح الباكر. ساعدته الراحة على استعادة قوته، وشعر بالحيوية، وبصيحة فرح قفز من السرير وارتدى ثيابه.

كان البيت أكثر ترحيبًا من أي وقتٍ اليوم، وورود السيدة "جريفين" مستقرة على كل الموائد وتغني بالألوان. كان الباب الأمامي مفتوحًا.. وهو ينزلق على الدرابزين سارع "هارفي" إلى الشرفة الأمامية ليطلع على الصباح.

كانت في انتظاره مفاجأة. فالأشجار التي كانت بعد ظهر الأمس مثقلة بالأوراق سقط عنها غطاؤها. كانت هناك براعم جديدة وصغيرة على كل فرع وغصن، وكأن هذا هو أول أيام الربيع.قال "ويندل" وهو يدور بتأن حول ركن البيت: "يوم آخر ودولار آخر!".

قال "هارفي": "ما معنى هذا؟"

- "هذا ما كان يقوله أبي طوال الوقت. يوم آخر ودولار آخر. إنه رجل بنوك.. أبي، ويندل هاملتون الثاني، وأنا.. أنا.."

- "ويندل هاملتون الثالث".

- "كيف عرفت؟"

- "تخمين موفق على ما أعتقد. أنا هارفي".

- "أجل، أعرف. هل تحب بيوت الأشجار؟"

- "لم يكن عندي واحد قط".

أشار "ويندل" إلى أعلى شجرة. كان عليها منصة جاثمة بين الفروع، وفوقها بيت بدائي مبني عليها.

قال "ويندل": "إنني أعمل بالأعلى منذ أسابيع. لكن لا يمكنني الانتهاء منه وحدي. هل تريد مساعدتي؟"

- "بالطبع. لكن عليّ أن آكل شيئًا أولاً".

- "اذهب لتأكل. ستجدني هنا".

توجه "هارفي" إلى الداخل، ووجد السيدة "جريفين" تعد إفطارًا يليق بأمير. كان هناك لبن مسكوب على الأرض، وقطة بذيل يتخذ شكل علامة الاستفهام تلعقه.

قال: "قط الأسئلة؟"

قالت السيدة "جريفين" بحب: "أجل بالطبع. إنه القط الشرير".

نظر قط الأسئلة لأعلى، وكأنه يعرف أنه محور الحديث. ثم قفز لأعلى إلى المائدة وأخذ يبحث بين أطباق الكعك وكعكات الوافل عن شيء يأكله. قال "هارفي" وهو يراقب القط يتشمم هذا وذاك: "هل يمكنه أن يفعل ما يشاء؟ أعني، ألا يتحكم فيه أحد؟"

أجابت السيدة "جريفين": "جميعنا لدينا من يتحكم فينا، أليس كذلك؟ سواء أردنا هذا أم لا. والآن كل. لديك أوقات مدهشة تنتظرك".

لم يكن "هارفي" بحاجة إلى دعوة ثانية. غرق في وجبته الثانية ببيت العطلة بشهية أكبر من التي جاءته في وجبته الأولى، ثم توجه إلى الخارج ليقابل اليوم.

ويا له من يوم!

كان النسيم دافئًا، ورائحته هي الرائحة الخضراء للأشياء النامية، والسماء تامة الزرقة عامرة بالطيور المحلقة. سار على العشب ويديه في جيبيه، كأنه سيد على كل ما يراه، مناديًا على "ويندل" وهو يقترب من الأشجار.

- "هل يمكنني الصعود؟"

تحداه "ويندل" قائلاً: "إذا لم تكن تخاف الارتفاعات".

صدر عن السلم صوت صرير وهو يصعد، لكنه وصل إلى المنصة دون أن يخطئ الخطو على درجة واحدة من السلم. واندهش "ويندل".

قال: "ليس هذا سيئًا بالنسبة لولد جديد. لم يتمكن ولدان قبلك من صعود إلى منتصف المسافة حتى".

- "وأين ذهبا؟"

- "إلى بيتهما على ما أعتقد. الأولاد يأتون ويذهبون كما تعرف".

نظر "هارفي" من بين الفروع، على ما بدا له كبرعم ينمو.

قال: "لا يمكنك رؤية الكثير. أليس كذلك؟ أعني أنه لا توجد أي علامة على البلدة".

قال "ويندل": "ومن يهتم؟ الجو رمادي على أية حال".

قال "هارفي" وهو ما زال يحدق في حائط الأحجار الضبابية الذي يفرق الأراضي المحيطة بالبيت عن العالم الخارجي: "والجو مشمس هنا. كيف هذا؟"

كانت إجابة "ويندل" مماثلة: "ومن يهتم؟ أنا لا أهتم. والآن، سنبدأ في البناء، ما رأيك؟"

قضيا الساعتين التاليتين في اللعب على بيت الشجرة، وهبطا أكثر من عشر مرات لينقبا في الخشب المكوم إلى جوار الحديقة، بحثا عن ألواح تصلح لإتمام الإصلاحات. ومع منتصف النهار لم يجدا من الخشب سوى ما يكفي لإصلاح السقف، لكن كل منهما وجد له صديقا. أحب "هارفي" نكات "ويندل" الرديئة، وكلمته تلك: من يهتم؟ التي كانت تتسلل إلى كل عباراته. وكان "ويندل" سعيدًا بصحبة "هارفي" بنفس القدر. قال: "أنت أول ولد أجده مرحًا"

- "وماذا عن لولو؟"

- "ماذا عنها؟"

- "أليست مرحة؟"

قال "ويندل" معترفا: "كانت على ما يرام عندما حضرت إلى هنا. فهي هنا منذ شهور وأرتني المكان. لكنها أصبحت غريبة الأطوار منذ أيام. أراها أحيانًا تتجول وكأنها نائمة، وعلى وجهها تعبير فارغ".

قال "هارفي": "إنها آخذة في الجنون على الأرجح. مخها يتحول إلى بطاطس مهروسة".

تساءل "ويندل" ووجهه يضيء باستمتاع شرير: "هل تعرف كثيرًا عن هذه الأشياء؟"

كذب عليه "هارفي" قائلاً: "بالطبع أعرف. فأبي جراح".

أثير عجب "ويندل" كثيرًا بهذا، وعلى مدى الدقائق القليلة التالية أنصت بحسد بالغ لـ"هارفي" وهو يخبره عن العمليات التي رآها.. الجماجم التي تفتح والسيقان التي تخيط والأقدام التي تلصق حيث كانت الأيادي، والرجل ذو البثرة في مؤخرته التي تحولت إلى رأس يتكلم".

قال "ويندل": "هل تقسم على هذا؟"

قال "هارفي": "أقسم".

- "هذا ممتع جدًا".

أصابهما كل هذا الكلام بجوع بالغ، ومع اقتراح "ويندل" بالأكل نزلا السلم ودخلا إلى البيت ليأكلا.

سأل "هارفي" وهما يجلسان إلى المائدة:

- "ماذا تريد أن تفعل بعد ظهر اليوم؟ سيكون الجو حارًا للغاية، هو دائمًا هكذا".

- "هل يوجد مكان يمكننا السباحة فيه؟"

قطب "ويندل" جبينه وقال: "أجل".. قالها بتردد وأضاف: "هناك بحيرة عند الجانب الآخر من البيت، لكنك لن تحبها كثيرًا".

- "ولم لا؟"

- "الماء عميق حتى إنك لا يمكنك رؤية القاع".

- "هل بها أي أسماك؟"

- "بالطبع".

- "ربما يمكننا صيد بعضه إذن وتطهوه السيدة جريفين لنا".

صاحت السيدة "جريفين" التي كانت عند الفرن تزين طبقًا بحلقات البصل، وأسقطت الطبق. ثم التفتت إلى "هارفي" بوجه شاحب شحوب الموت وقالت: "لا أنصحك بهذا".

رد "هارفي": "ولم لا؟ حسبت أنني قادر على فعل أي شيء أريده".

قالت له: "أجل، بالطبع يمكنك. لكنني لا أريدك أن تمرض. فالسمك مسموم كما ترى".

قال "هارفي": "آه.. ربما لن نأكله إذن".

قالت السيدة "جريفين": "انظر لهذه الفوضى". وهي تحاول التغطية علىَ ارتباكها.. "أحتاج إلى منزر جديد".

هرولت لإحضار واحد، تاركة "هارفي" و"ويندل" يتبادلان النظرات الحيرى. قال "هارفي": "والآن عليّ حقًا أن أرى تلك الأسماك".

وهو يتكلم قفز قط الأنلة إلى المائدة المجاورة للفرن وقبل أن يتمكن أي من الولدين من إيقافه وضع مخالبه على طرف مقلاة. قال له "هارفي": "انزل!"

لم يلتفت القط للأمر. صعد إلى طرف المقلاة ليشم محتوياتها، وذيله يتحرك للأمام والخلف. وفي اللحظة التالية حلت كارثة. تراقص الذيل قريبًا من

أحد المشاعل فاشتعل. صرخ قط الأنلة، وسقط في المقلاة التي كان جاثمًا فوقها. قابلته موجة من المياه المغلية فردته بعيدًا عن الفرن، وسقط على الأرض والدخان يتصاعد منه. سواء غارقًا أو محروقًا بالماء المغلي أو بالنار، فالنهاية هي النهاية: سقط على الأرض ميتًا.

أعادت الجلبة السيدة "جريفين" إلى المطبخ.

قال "ويندل" والسيدة العجوز تطل من الباب: "أظن أنني سآكل بالخارج". وقبض على قطعتي "هوت دوج" ومضى.

صاحت السيدة "جريفين" عندما سقطت عيناها على القط الميت: "يا إلهي! أيها الشيء الأحمق".

قال "هارفي" وقد أصيب بالغثيان مما رآه: "كان حادثًا. صعد على الفرن و..."

"شيء أحمق" بدا أن هذا كل ما قدرت السيدة "جريفين" على قوله. جلست على ركبتيها وحدقت في كيس الفراء الصغير المحترق.. ثم غمغمت أخيرًا: "لا مزيد من أسئلتك".

جعلت رؤية حزن السيدة "جريفين" عيني "هارفي" تغرورقا بالدموع، لكنه كره أن يراه أحد يبكي؛ لذا قاوم دموعه قدر استطاعته وقال: "هل أساعدك في دفنه؟" بصوت حزين.

التفتت السيدة "جريفين" إليه وقالت: "هذا لطف منك. لكن لا حاجة إلى ذلك. اخرج والعب".

قال "هارفي": "لا أريد أن أتركك وحدك".

قالت السيدة "جريفين": "انظر إلى نفسك يا طفلي. على وجنتيك دموع".

احمر وجه "هارفي" ومسح دموعه بظهر يده. قالت السيدة "جريفين": "لا تخجل من البكاء. إنه شيء رائع. أتمنى لو أتمكن من البكاء قليلاً".

قال "هارفي": "أنت حزينة. يمكنني رؤية هذا".

أجابته السيدة "جريفين": "ما أشعر به ليس حزنًا بالضبط. وليس سلوى أيضًا".

سألها "هارفي": "وما هي السلوى؟"

قالت السيدة "جريفين" وهي تقف على قدميها: "إنها شيء مريح. شيء يعالج ألم القلب".

- "وليس لديك أي منها؟"

قالت السيدة "جريفين": "لا ليس لدي". ثم وهي تمد يدها لتلمس وجنة "هارفي": "لكن ربما أجد بعضها في دموعك هذه. إنها تريحني". ثم تنهدت وهي تسير بإصبعها على وجنته وتضيف: "دموعك حلوة يا طفلي. وكذلك أنت. والآن اخرج إلى النور واستمتع بوقتك. الشمس بالخارج ولن تبقى إلى الأبد، صدقني".

- "هل أنت واثقة؟"

- "أنا واثقة".

قال "هارفي" وهو يتوجه إلى الخارج وإلى النهار: "أراك لاحقا إذن".

* * *

5 – السجناء

ارتفعت الحرارة أثناء تناول "هارفي" للغداء. استقرت فوق الممشى العشبي غيمة حارة (والذي كان أكثر اخضرارًا وامتلاء بالزهور عما يتذكر) وجعلت الأشجار حول البيت تومض بالحيوية.

توجه ناحيتهم، مناديًا اسم "ويندل" في طريقه. لم يتلق استجابة. عاود النظر ناحية البيت مفكرًا أنه قد يرى "ويندل" عند أحد النوافذ، لكنها جميعها كانت تعكس لون السماء الأزرق الصافي. رفع بصره من البيت إلى السماء. لم يجد سحابة واحدة.

استولى الشك عليه، وتحول إلى يقين مع عودة نظرته إلى الأشجار والزهور اليانعة تحته. خلال الساعة التي قضاها في رطوبة المطبخ تحول الفصل. حل الصيف في بيت عطلة السيد "هود"، صيف سحري كالربيع الذي سبقه.

كان هذا هو سبب زرقة السماء الصافية، والطيور التي تغرد كثيرًا. ولم تكن الفروع المحملة بالاخضرار أقل في دلالتها، ولا البراعم المزهرة وسط الأعشاب، ولا النحلات التي أخذت تطن بين زهرة وأخرى، في سعيها لجمع رزق الصيف. وكل شيء مبارك وجميل.

لن يكون فصلاً طويلاً. هكذا خمن "هارفي". إذا كان الربيع قد مر في الصباح، فعلى الأرجح سينقضي الصيف قبل مرور الأصيل.

قال لنفسه: علي بالاستفادة منه على أكمل وجه، وهرول يبحث عن "ويندل". أخيرًا وجد صديقه جالسًا في ظل الأشجار، وكومة من مجلات القصص المصورة إلى جانبه.

سأله: "هل تريد الجلوس والقراءة؟"

قال "هارفي": "ربما لاحقًا. أولاً أود إلقاء نظرة على تلك البحيرة التي تكلمت عنها. هل ستذهب؟"

- "الماذا؟ قلت لك أنها مملة".

- "حسن. سأذهب وحدي".

قال "ويندل": "لن تبقى هناك طويلاً" ثم عاود القراءة.

ورغم أن "هارفي" كان لديه فكرة جيدة عن مكان البحيرة، فالشجيرات على ذلك الجانب من البيت كانت كثيفة ومليئة بالأشواك، وأخذ منه الأمر عدة دقائق حتى وجد طريقه بينها. ومع رؤيته للبحيرة ذاتها كان العرق على وجهه وظهره لزجًا، وجرح ذراعيه ودميا بسبب الأشواك.

وكما تنبأ "ويندل"، لم تكن البحيرة تستحق العناء. كانت كبيرة.. كبيرة إلى درجة أن طرفها البعيد كان بالكاد مرئيًا، لكنه كئيب وموحش، وكل من البحيرة والأحجار الداكنة المحيطة بها مغطاة بمادة خضراء لزجة. كان هناك عدد كبير من الذباب الذي يطن بحثًا عن شيء متعفن ليأكله، وخمن "هارفي" أنها لن تجد مشكلة في الوصول إلى مأدبة. فهذا المكان حيث تجد الأشياء الميتة.

هم بالرحيل عندما لمح حركة بين الظلال. شخص ما كان يقف بعيدًا على ضفة البحيرة، يكاد يخفيه دغل من الأشجار. تحرك عدة خطوات مقتربًا من

البحيرة، ورأى أنها "الولو". كانت جاثمة على الأحجار الزلقة عند طرف المياه، محدقة في أعماقها.

وبصوت هامس خوفًا من إفزاعها قال "هارفي": "تبدو باردة".

نظرت إليه، ووجهها ممتلئ بالارتباك، ثم ومن دون أي رد التفتت بعيدًا وهرولت إلى وسط الشجيرات.

ناداها "هارفي" مهرولاً إلى البحيرة: "انتظري!"

لكن "الولو" كانت قد اختفت بالفعل وإن تركت الدغل يهتز خلفها. ربما كان ليطاردها، لكن صوت الفقاقيع الذي ظهر في البحيرة حول نظره إلى المياه، وهناك، تحت غلاف من الزبد، رأى السمك. كانت كبيرة تقاربه الحجم، بقشور رمادية مبقعة، وعيونها الجاحظة ملتفتة ناحية السطح مثل عيون سجناء في حفرة مائية.

كانت الأسماك تراقبه، وهو على يقين من هذا، فأصابه تدقيقها فيه بالارتجاف. هل كانت جائعة، هكذا تساءل، أو ربما يأمل في أن ينزلق على الأحجار ويسقط في الماء؟ أم أنها تتمنى لو عاد بعصا وخيط حتى يخرجها من الأعماق ويضع حدًا لمعاناتها.

قال لنفسه: يا لها من حياة. لا شمس تستدفئ بها، ولا زهور تشمها، ولا ألعاب تلعبها. المياه العميقة المظلمة فقط لتدور فيها، وتدور، وتدور.

أصابته مراقبتها بالدوار، وخشي إن بقي قليلاً أن يفقد توازنه وينضم إليها. شهق مرتاحًا عندما أدار ظهره لذلك المشهد، وعاد إلى الشمس بأسرع ما تسمح له أشواك الشجيرات.

كان "ويندل" ما يزال جالسًا تحت الشجرة. كانت على العشب إلى جواره زجاجتان من الصودا المثلجة، وناول واحدة لـ"هارفي" وهو يقترب.

قال: "إذن؟"

أجابه "هارفي": "أنت محق".

- "لا يذهب العاقلون إلى هناك أبدًا".

- "رأيت لولو".

صاح "ويندل" مبتهجًا: "بم أخبرتك؟ لا يذهب العاقلون إلى هناك".

- "وتلك الأسماك.."

قال "ويندل" وهو ووجهه يتقلص: "أجل، أعرف.. أشياء مفزعة قبيحة. أليست كذلك؟"

- "لم يقتني السيد هود أسماكًا كهذه؟ أعني أن كل شيء بخلافها بالغ الجمال. المماشي العشبية، والبيت والبستان.."

قال "ويندل": "ومن يهتم؟"

قال "هارفي": "أنا. أريد أن أعرف كل شيء يمكن معرفته عن هذا المكان".

- "لماذا؟"

- "حتى أخبر أمي وأبي بها لدى عودتي إلى البيت".

- "البيت؟ ومن يحتاجه؟ لدينا كل شيء نحتاجه هنا".

- "ما زلت أود معرفة كيف يجري كل شيء هنا. هل توجد آلة تغير الفصول؟"

أشار "ويندل" لأعلى عبر الفروع إلى الشمس وقال: "هل تبدو لك هذه آلية؟ لا تكن أحمق يا هارفي. كل هذا حقيقي. مسحور لكنه حقيقي".

- "هل تعتقد هذا؟"

أجابه "ويندل": "الجو حار جدًا لدرجة لا تسمح بالتفكير.. والآن اجلس واصمت". ثم ألقى بعض مجلات القصص المصورة ناحية "هارفي" وقال: "تفحصها. لتجد لنفسك وحشًا لليلة".

- "وماذا سيحدث الليلة؟"

قال "ويندل": "عيد كل القديسين (الهالووين) بالطبع. إنه يأتي كل ليلة".

جلس "هارفي" إلى جوار "ويندل" وفتح زجاجة الصودا وبدأ يتصفح المجلات، مفكرًا وهو يتصفحها ويرشف من الزجاجة أنه ربما كان "ويندل" على حق، وأن الجو حار لا يسمح بالتفكير. لكن هذا المكان المسحور يعمل كما يجب، ويبدو حقيقيًا بما يكفي. كانت الشمس حارة، والصودا باردة، والسماء زرقاء، والعشب أخضر.

ماذا يحتاج لأن يعرفه غير هذا؟

وسط كل هذه التساؤلات سقط نائمًا؛ لأنه عندما أفاق من نومه مفزوعًا وجد الشمس وقد قل نورها، و"ويندل" لم يعد يقرأ إلى جانبه.

مد يده إلى الصودا، لكن الزجاجة سقطت، وجذبت رائحة الكريز الحلوة المئات من النمل. كانت تزحف حولها وفيها، وماتت نملات كثيرة منها في خضم جشعها.

وهو ينهض إلى قدميه هبت أول نسمة هواء حقيقية يتنسمها منذ الظهيرة، وسقطت ورقة شجر بحواف ذابلة لتحط عند قدميه.

غمغم قائلاً: "إنه الخريف.."

حتى تلك اللحظة، وهو واقف تحت الأغصان التي تهتز، مراقبًا الهواء يهز الأوراق ليسقطها، كان الخريف يبدو له دائمًا أكثر الفصول إثارة للحزن. فهو يعني أن الصيف قد ولى، وأن الليالي ستطول وتبرد. لكن الآن، مع تحول تساقط الأوراق إلى سيل، ومع نزول الحبات والثمار، ضحك لرؤيته هذا يحدث. مع خروجه من تحت الشجرة كان في شعره أوراق، وعلى ظهره، وأخذ يهزها من عليه مع كل خطوة سريعة يخطوها.

ومع وصوله للشرفة الأمامية زحفت أول سحابة يراها بعد ظهر ذلك اليوم أمام الشمس، وجعل ظلها المنزل الذي حط عليه يبدو أشبه بالسراب، فجأة داكنًا مظلمًا وجامدًا.

قال: "أنت حقيقي" وهو واقف على الشرفة الأمامية.. "أنت حقيقي.. ألست كذلك؟"

بدأ يضحك لحماقة حديثه إلى البيت، لكن الابتسامة غابت عن وجهه عندما جاءه صوت خافت لا يكاد يسمعه يقول:

- "وماذا تظن أيها الطفل؟"

جال بعينيه بحثًا عن المتكلم، لكنه لم ير أحدًا عند المدخل، ولا على الشرفة الأمامية، ولا على خطوات السلم خلفه.

قال: "من قال هذا؟"

لم تأته إجابة، وهو ما سره. لم يكن صوتًا على الإطلاق، هكذا قال لنفسه. كان صرير الألواح من تحته، أو حفيف الأوراق الجافة المستقرة على العشب. لكنه خطا إلى البيت وقلبه يتسارع قليلاً، مذكرًا نفسه وهو يمشي بأن الأسئلة غير مرحب بها هنا.

قال لنفسه: لكن ما أهمية هذا على أية حال، سواء كان هذا المكان حقيقيًا أو حلمًا؟ شعر به حقيقيًا، وكان هذا ما يهم.

وبعد أن شعر بالرضا من هذه الفكرة هرول بطول البيت إلى المطبخ حيث كانت السيدة "جريفين" تثقل المائدة بأصناف الطعام.

* * *

6 - يُرى ولا يُرى

قال "ويندل" وهم يأكلون: "ماذا سيكون تنكرك الليلة؟"

قال "هارفي": "لا أعرف. كيف ستتنكر أنت؟"

قال وعلى وجهه ابتسامة واسعة: "جلاد الشنق.. تعلمت كيف أربط العقد. والآن كل ما علي أن أفعله هو أن أجد من أشنقه" نظر للسيدة "جريفين" وأضاف: "الأمر سريع. كل ما عليك فعله هو أن تسقطهم، ثم.. طاك! تنكسر رقابهم!"

قال السيدة "جريفين": "هذا أمر مريع! لماذا يجب الأولاد دومًا الكلام عن الأشباح والقتل والشنق؟"

قال "ويندل": "لأنها مثيرة!"

ردت عليه وعلى وجهها ما يشبه الابتسامة: "أنتم وحوش. هكذا أنتم. وحوش".

قال "ويندل": "هارفي كذلك. رأيته يخلع أسنانه".

قال "هارفي" وهو يمسح الكاتشاب من حول فمه: "هل القمر بدر اليوم؟ أتمنى هذا. أحتاج للدم.. دم طازج".

قال "ويندل": "جيد.. يمكنك أن تكون مصاص دماء. سأشنق الناس لتمص أنت دماءهم".

قالت السيدة "جريفين" ثانية: "فظيع.. كلام فظيع".

لعل البيت سمع "هارفي" يتمنى بدرًا؛ لأنه عندما خرج ومعه "ويندل" لأعلى ونظر من نافذة السلم وجد بين الأغصان قمرًا كبيرًا وأبيض كابتسامة رجل ميت.

قال "هارفي": "انظر إليه! أكاد أرى كل فوهة بركانية فيه. إنه تام الاكتمال".

قال "ويندل": "هذه هي البداية فقط". وهو يقود "هارفي" إلى حجرة كبيرة مليئة بالثياب من كل شكل وصنف. كان بعضها معلقًا على المشاجب، وبعضها في سلال مثل ملابس الممثلين، وبعضها ما زال مكومًا عند طرف الحجرة البعيد على الأرض الترابية. ثم مشهد جعل "هارفي" يشهق، حيث كان نصف مخبأ، حتى كشف عنه "ويندل".. حائط مغطى من الأرض للسقف بالأقنعة.

قال "هارفي" وهو يحدق في ذلك المشهد: "من أين أتت جميعها؟"

قال له "ويندل": "السيد هود يجمعها. والملابس هي ملابس الأطفال الذين جاءوا إلى هنا وخلفوها".

لم يهتم "هارفي" بالملابس، كانت الأقنعة هي التي أدهشته. كانت مثل ندف الثلج. ولا واحدة منها مثل غيرها. بعضها مصنوع من الخشب والبلاستيك، وبعضها من القش والقماش. وبعضها لامع وبعضها شاحب. بعضها غريب المظهر حتى إنه تيقن من أن من نحتها أشخاص مجانين، وبعضها الآخر مثل أقنعة موت الملائكة. أقنعة لمهرجين وثعالب، وأقنعة مثل الجماجم مزينة بأسنان حقيقية، وأحدها فيه ألسنة لهب منحوتة بدلاً من الشعر.

قال "ويندل": "اختر ما تشاء. من المؤكد أن هناك قناع مصاص دماء في مكان ما هنا. أيا كان ما آتي إلى هنا سعيًا إليه، أجده عاجلاً أو آجلاً".

قرر "هارفي" ترك متعة اختيار القناع إلى وقت لاحق، وركز انتباهه على العثور على شيء يجعله يشبه الخفاش ليرتديه. وهو يفتش أكوام الملابس وجد شيئًا تساءل إن كان الأطفال قد تركوه خلفهم بعد أن رحلوا. وإن كان يكره دروس التاريخ، فهو يعرف أن بعض السترات والأحذية والقمصان والأحزمة من طراز قديم، قديمة ومرت عليها سنوات وسنوات. أين أصحاب هذه الملابس الآن؟ ماتوا، هكذا افترض، أو أصبحوا في سن كبيرة، فلا فارق.

أصابته فكرة أن هذه الملابس تنتمي لأشخاص موتى بارتجافة مرت بعموده الفقري، وكان هذا مناسبًا. فهذا عيد كل القديسين ، وما فائدة عيد كل القديسين من غير بعض الارتجافات؟

بعد دقائق قليلة من البحث وجد سترة سوداء طويلة لها ياقة يمكنه رفعها، ورآها "ويندل" مناسبة لمصاصي الدماء للغاية. وبعد أن رضى باختياره عاد إلى حائط الأقنعة، وسقطت عينه على الفور على قناع لم يره من قبل، فيه شحوب وعيون غائرة لجثة ناهضة من القبر. أمسك به وارتداه. كان مقاسه ممتازًا عليه.

تساءل "هارفي" وهو يدور بعينيه لمواجهة "ويندل" الذي وجد علامة جلاد تلائم ما يريده تمامًا: "كيف أبدو؟"

- "قبيح كالذنب".
- "رائع".

رأى باقة من ثمرات قرع العسل مصفوفة على الشرفة الأمامية عندما خرجا، وشم رائحة الهواء كالخشب المحترق.

قال "هارفي": "أين سنذهب نستجدي العطايا؟ في الشارع؟"

قال "ويندل": "لا. إنه ليس عيد كل القديسين في العالم الواقعي، أتذكر؟ سنذهب إلى مؤخرة البيت".

قال "هارفي" محسورًا: "يا له من مكان بعيد".

قال "ويندل" بصوت وجل: "في هذا الوقت من الليل تجد البيت مليئًا بالمفاجآت. سترى بنفسك".

رفع "هارفي" بصره إلى البيت من خلف فتحتي العينين في قناعه. كان كبيرًا عملاقًا، ودوارة الرياح حادة بما يكفي لطعن النجوم.

قال "ويندل": "تعال.. أمامنا رحلة طويلة تنتظرنا".

قال "هارفي" لنفسه: رحلة طويلة؟ كيف يمكن أن تكون الرحلة طويلة من مدخل البيت إلى مؤخرته؟ لكن لمرة أخرى كان "ويندل" محقًا. كان المنزل مليئًا بالمفاجآت. فقد استغرقت الرحلة التي تأخذ عادة دقيقتان من المشي في فترة الأصيل المتوهجة الضياء، رحلة تمنى "هارفي" معها لو كان قد أحضر كشافًا وخريطة. كانت أوراق الأشجار تحت أقدامهما تبدو وكأنها ثعابين تتلوى، والأشجار التي كانت تظللهما في النهار بدت مخيفة في عراها من الأوراق، بدت موحشة وجائعة.

سأل نفسه وهو يتبع "ويندل" وسط الظلام: "لماذا نفعل هذا؟ أشعر بالبرد، ولست مرتاحًا" (وكان له أن يضيف خوفه إلى القائمة، لكنه ترك تلك الفكرة غير مذكورة).

وهو على وشك اقتراح العودة، أشار "ويندل" لأعلى وهمس بصوت كالهسيس: "انظر!"

نظر "هارفي". فوقه مباشرة كان شيء ما يتحرك بصمت تحت السماء، وكأنه أطلق نفسه من سطح البيت. تراجع القمر إلى خلف السقف، ولم يلق بضوء على ذلك الطائر الليلي، حتى إن "هارفي" لم يتمكن من تخمين شكله إلا من النجوم التي أخفاها وهو يطير. كان جناحاه عريضين، لكنهما مهترئين لدرجة لا يمكن معها أن يحملانه، هكذا فكرة. بدا أنه ينبش بمخالبه في الظلام وهو يطير، وكأنه يزحف على الهواء نفسه.

لم ير "هارفي" غير لمحة خاطفة منه. ثم اختفى.

همس: "ما هذا؟!"

لم يتلق إجابة. فأثناء اللحظات التي قضاها محدقا في السماء كان "ويندل" قد اختفى.

همس "هارفي": "ويندل؟ أين أنت؟"

لم يتلق إجابة. فقط حفيف أوراق الأشجار وأنين الغصون الجائعة.

قال "هارفي" بصوت أعلى هذه المرة: "أعرف ما تفعله. وأنت لن تخيفني بهذه السهولة. هل تسمعني؟"

تلقى إجابة من نوع ما هذه المرة. ليس بالكلمات، بل بصوت صرير من مكان ما بين الأشجار.

قال "هارفي" لنفسه إنه تسلق إلى بيت الشجرة، وبسبب تصميمه على الإمساك بـ"ويندل" وإخافته، تبع الصوت.

بالرغم من عرى الأغصان منعت معظم ضوء النجوم من إضاءة الحديقة. أنزل القناع إلى رقبته حتى يرى أفضل، لكن حتى بعد أن فعل كان شبه أعمى، وكان عليه الإنصات لصوت صعود "ويندل" كي يقوده إليه. ما زال يسمع صوت الصرير واضحًا بما يكفي، فمشى متعثرًا في اتجاهه، وذراعاه ممتدان للإمساك بالسلم عندما يصل إليه.

صار الصوت أعلى حتى إنه تيقن من أنه يقف تحت الشجرة مباشرة. نظر للأعلى، متمنيًا أن يرى صديقه المخادع، لكن وهو ينظر مس شيء ما وجهه. مد يده إليه، لكنه اختفى، على الأقل للحظة. ثم عاد ثانية ليمس جبينه من الجانب الآخر. حاول الإمساك به للمرة الثانية، ثم وهو يمسه مرة ثانية أمسك به.

صاح: "أمسكتك".

تبع صيحته الظافرة تدفق الهواء، وصوت شيء يرتطم بالأرض إلى جانبه. قفز، لكنه رفض التخلي عما أمسك به أيا كان. قال: "ويندل؟"

ردًا عليه اشتعل اللهب في الظلام من خلفه، وانطلقت الألعاب النارية في شلال من الشرارات الخضراء، وضوءها في كثافته يشبه بستانًا من الضياء. وعلى ضوءها رأى ما كان يمسكه، وصدر عنه صيحة ذعر جعلت العصافير تطير من أعشاشها فوقه.. لم يكن السلم هو ما سمعه يصر، بل حبل. لا، ليس حبلاً. بل أنشوطة. وفي يده كان هناك رجل مشنوق على الأنشوطة. تركه وتراجع للخلف متعثرًا، كاتمًا صرخة ثانية وعينه ترتفع لتقابل نظرة الرجل الميت. ومن تعبير وجهه كان قد مات ببشاعة. كان لسانه خارج فمه تحيط به الرغاوى، وعروقه المحتقنة بالدماء جعلت رأسه يبدو كثمرة قرع العسل.

أو هل هي ثمرة قرع عسل؟!.

تدفق تيار من الشرارات من بين الألعاب النارية المشتعلة، ورأى "هارفي" حقيقةَ الأمر. كانت القدم التي يمسك بها بنطلونًا محشوًا، والجسد سترة مليئة بحزم من الملابس، والرأس قناع مستقر فوق ثمرة قرع عسر، عليها كريم بدلاً من الرغاوى وبيضتين تمثلان العينان.

صاح وهو يدير ظهره لمشهد الإعدام: "ويندل!"

كان "ويندل" واقفًا على الجانب البعيد من الألعاب النارية، وعلى وجهه ابتسامة بالغة الاتساع تضيء وسط الشرر. بدا مثل شيطان صغيرة خرج لتوه من جهنم. وإلى جانبه السلم الذي سقط ليبدأ المشهد الدرامي.

قال "ويندل": وهو يرفع قناعه: "لقد حذرتك.. قلت لك أنني سأصبح جلادًا شانقًا الليلة!"

قال "هارفي" وقلبه ما زال يخفق بسرعة بحيث حجب عنه رؤية الجانب الطريف من الموضوع: "سأنال منك نظير هذا! أقسم لك.. سأنال منك!"

صاح "ويندل": "يمكنك المحاولة!" كانت الألعاب النارية قد بدأت تأفل، والظلال من حولهما بدأت توغل ثانية.. ثم تساءل: "هل نلت كفايتك من عيد كل القديسين الليلة؟"

لم يحب "هارفي" الاعتراف بالهزيمة كثيرًا، لكنه أومأ برأسه بتجهم، وهو يقسم لنفسه أنه عندما ينال انتقامه فسوف يكون قاسيًا.

قال "ويندل" وشلال الشرر يخبو: "ابتسم.. إننا في بيت العطلة".

. . .

كان الضوء قد خبا تقريبًا، وبالرغم من أن "هارفي" كان ما زال غاضبًا من "ويندل"—ومن نفسه لكونه أحمق هكذا—فلم يتمكن من إنهاء الموضوع دون المصالحة. قال سامحًا لنفسه بابتسامة صغيرة: "حسن.. ستأتي ليالي أخرى".

قال "ويندل": "الليالي لا حصر لها" سره جوابه وأضاف والنور يخبو: "فهذا ما هو عليه هذا المكان.. إنه بيت الأبد".

* * *

7- هدية من الماضي

كان في انتظارهما عشاء "الشكر" عندما عادا إلى البيت.

قالت السيدة "جريفين" عندما رأت "هارفي": "تبدو وكأنك كنت في الحرب.. هل لجأ ويندل إلى خدعه؟"

اعترف "هارفي" بأنه انخدع بها، لكن هناك خدعة واحدة أبهرته على الأخص.

قال "ويندل" بابتسامة سمجة: "ماذا كانت؟ سقوط السلم؟ كانت لمسة ماهرة، ألم تكن كذلك؟"

قال "هارفي": "لا.. ليس السلم".

- "ماذا إذن؟"
- "الشيء الذي طار في السماء".
- "آه.. ذلك الشيء".
- "ماذا كان؟ طائرة ورقية؟"

أجابه "ويندل": "لم يكن فعلي".

- "ماذا كان إذن؟"

قال "ويندل" وابتسامته تتلاشى: "لا أعرف.. الأفضل ألا تسأل".

قال "هارفي" بإصرار: "لكنني أريد أن أعرف" ثم وهو يلتفت إلى السيدة "جريفين": "كان له أجنحة، وأعتقد أنه طار من فوق السقف".

قالت السيدة "جريفين": "إذن فهو وطواط".

قال وهو يفرد ذراعيه: "لا. كان أكبر من الوطواط مئات المرات. بأجنحة كبيرة ومظلمة".

قطبت السيدة "جريفين" جبينها و"هارفي" يتكلم ثم قالت: "لقد تخيلته".

قال "هارفي" محتجًا: "لم أتخيله".

أجابته السيدة "جريفين": "لم لا تجلس وتأكل؟ إن لم يكن وطواطًا فلم يكن أي شيء على الإطلاق".

- "لكن ويندل رآه هو الآخر. ألم تره يا ويندل؟"

أدار بصره إلى الولد الآخر، الذي جلس يحفر في طبق من الديك الرومي يتصاعد منه البخار، وصوص التوت البري.

قال "ويندل" وهو يمضغ الطعام أثناء الكلام: "ومن يهتم؟"

- "قل لها فقط أنك رأيته".

هز "ويندل" رأسه وقال: "ربما رأيته، وربما لم أره. إنها ليلة عيد كل القديسين. لابد من وجود كائن مخيف ما بالخارج".

قال "هارفي": "لكن ليس وحشًا حقيقيًا. الخدعة شيء، لكن لو كان ذلك الوحش حقيقيًا.."

وهو يتكلم أدرك أنه ينتهك القاعدة التي التزم بها على الشرفة الأمامية. سواء كان الكائن المجنح حقيقة أم خيالاً فهذا لا يهم. هذا مكان الأوهام. ألن يسعد أكثر لو كف عن التساؤل حول ما هو حقيقي وما هو خيال؟

قالت السيدة "جريفين" ثانية: "اجلس وكل".

هز "هارفي" رأسه. كانت شهيته قد خبت. كان غاضبًا، رغم أنه لم يكن واثقًا ممن بالضبط. ربما من "ويندل" بسبب هزه لرأسه وتجاهله لما جرى، أو من السيدة "جريفين" لأنها لم تصدقه، أو من نفسه، لأنه خائف من الأوهام. أو من الثلاثة معًا.

قال: "سأصعد إلى حجرتي لأغير ثيابي". ثم غادر المطبخ.

وجد "لولو" على منبسط السلم تطل من النافذة. كانت الرياح تهب على الزجاج، مذكرة "هارفي" بزيارة "ريكتوس" الأولى. لكن لم تجلب الرياح مطرًا، بل ثلجًا. قالت: "سيحل الكريسماس قريبًا".

- "حقًا؟"

- " ستقدم الهدايا. هذا ما يحدث دومًا. تمنَّ شيئًا".

- "هل هذا ما تفعلينه؟"

هزت رأسها وقالت: "لا.. قضيت هنا وقتًا طويلاً حتى إنني حصلت على كل ما أردته. هل تود أن ترى؟"

أجابها "هارفي" بالإيجاب، وقادته أعلى السلم إلى حجرتها، التي كانت كبيرة هائلة الحجم، ومليئة بكنوزها. من الواضح أنها مغرمة بالصناديق. صناديق مجوهرات صغيرة، وصناديق منحوتة كبيرة، وصندوق لمجموعة كراتها الزجاجية، وصندوق يلعب الموسيقى، وصندوق تضع فيه مائة صندوق صغير.

كما كان لديها عائلات من الدمي، جالسة في صفوف بعيون خاوية على الجدران. لكن الأكثر إثارة للعجب هو البيت الذي نفيت منه الدمي. كان واقفًا

منتصبًا في منتصف الحجرة، بارتفاع خمسة أقدام من قاعدته إلى قمة مدخنته، بتفاصيل دقيقة من الطوب وألواح السقف والنوافذ.

قالت "لولو" وهي تفتح الباب الأمامي: "هنا حيث أبقي أصدقائي".

خرجت سحليتان خضراوان براقتان لتقابلها، ثم صعدت على ذراعها إلى كتفيها.

قالت: "الباقي بالداخل. انظر".

نظر "هارفي" عبر النوافذ، ووجد أن كل حجرة بالبيت مشغولة. كانت هناك سحالي ممددة على الأسرة، وسحالي نائمة في أحواض الاستحمام، وسحالي معلقة من الثرايا. ضحك بصوت مرتفع من سلوكها.

قالت "لولو": "أليست طريفة؟"

قال: "رائعة!".

- "يمكنك الصعود واللعب معها وقتما تشاء".

- "شكرًا لك".

- "إنها ودودة حقًا. ولا تعض حين تكون جائعة. انظر.."

نزعت واحدة من على كتفها وأسقطتها في كف "هارفي". جرت بسرعة وصعدت إلى رأسه مما سر "لولو".

نعما بصحبة السحليتين لفترة طويلة، حتى رأى "هارفي" انعكاسه في واحدة من النوافذ، وتذكر شكله.

قال لـ"لولو": "الأفضل أن أذهب لأغتسل. أراك لاحقًا".

ابتسمت له وقالت: "أحبك يا هارفي سويك".

جعله صدقها يتحرى الصدق وهو يقول: "وأنا أيضًا أحبك" ثم تغير تعبير وجهه ليتخذ شكلاً متجهمًا وهو يضيف: "لا أريد أن يصيبك مكروه".

بدت عليها الحيرة.

قال: "رأيتك عند البحيرة".

قالت: "حقًا؟ لا أتذكر".

- "إنها عميقة. عليك بالحذر. فقد تنزلقين وتسقطين فيها".

قالت وهو يفتح الباب: "سأتوخى الحذر. ويا هارفي؟"

- "نعم".

- "لا تنس أن تتمنى شيئًا".

* * *

ماذا أتمنى؟ هكذا تساءل وهو يمسح القذارة من على وجهه. شيء مستحيل ربما، لترى كم يملك البيت من السحر. نمر أبيض ربما. أم منطاد من طراز (زبلن) بالحجم الطبيعي؟ أم تذكرة إلى القمر؟

جاءته الإجابة من أعماق ذكرياته. سيتمنى هدية منحت له وفقدها منذ زمن طويل، هدية صنعها له والده، والتي لن يقدر السيد "هود" على منحها لضيفه بغض النظر عن مدى رغبته في بث السرور في ضيفه الجديد.

غمغم: "السفينة".

مع غسله لوجهه، وتحول الخدوش التي أصابت وجهه من الأشواك إلى ما يشبه جراح الحرب، توجه لأسفل، ليجد للمرة الثانية البيت وقد أدى تحولاً

مدهشًا. كانت هناك شجرة كريسماس طويلة لدرجة أن النجوم في قمتها كانت تحك السقف، واقفة في الردهة، وألوانها تلمع وتدخل إلى كل حجرة. كانت هناك رائحة شيكولاتة في الهواء، وصوت أغنيات الكريسماس. وفي حجرة المعيشة كانت السيدة "جريفين" جالسة إلى جوار نيران مستعرة، وقطة الشوربة تهر في حجرها.

قالت لـ"هارفي": "خرج ويندل.. هناك وشاح وقفاز لك عند الباب الأمامي".

خرج "هارفي" إلى الشرفة الأمامية. كان الهواء مثلجًا، لكنه أزاح سحب الثلج ليترك النجوم تلمع على سجادة تامة البياض.

ليست تامة. كانت هناك آثار أقدام تؤدي من المنزل إلى حيث وقف "ويندل" يبني رجل الجليد.

صاح لـ"هارفي" وصوته جلي كأصوات الأجراس التي ترن في الهواء البارد: "هل ستخرج؟"

هز "هارفي" رأسه. كان مرهقًا حتى إن الثلج بدا له مريحًا".

قال: "ربما غدًا.. سيعود غدًا. أليس كذلك؟"

صاح "ويندل": "بالطبع.. والليلة التالية، والتي بعدها.."

دخل "هارفي" لينظر إلى شجرة الكريسماس. كانت فروعها محملة بعناقيد من الفيشار والتوت، بأضواء ملونة وزينة وتماثيل جنود صغيرة في أزياء فضية لامعة.

قالت السيدة "جريفين" وهي تقف عند باب حجرة المعيشة: "هناك شيء من أجلك.. أتمنى أن يكون ما تريده يا عزيزي".

ركع "هارفي" ليخرج لفافة عليها اسمه من تحت الشجرة. تسارع نبضه قبل أن يفتحها؛ لأنه كان يعرف من شكلها ومن الطريقة التي تهتز بها أن أمنيته قد تحققت. جذب الخيط، متذكرًا وهو يفعل هذا كم كانت يده صغيرة وهو يحمل الهدية للمرة الأولى. مزق الورق وسقط، وبين يديه، لامعة وجديدة.. كانت السفينة الخشبية المطلية.

كانت نسخة مطابقة من التي صنعها له والده. نفس الجسد الأصفر، ونفس المقدمة البرتقالية، ونفس كابينة القيادة بنفس الفتحات في السقف الأحمر للزراف كي يخرج رأسه منها. ونفس الحيوانات المصنوعة من الرصاص، في أزواج، واقفة مستكينة أو محدقة من قمرات السفينة. كلبان، وفيلان، وجملان، وحمامتان.. مع ما يزيد عن عشرة أنواع أخرى. وأخيرًا، نفس النموذج للنبي نوح بلحيته البيضاء المربعة، ونفس الزوجة بمئزرها.

غمغم "هارفي": "كيف عرف؟"

لم يقصد أن يُسمع السؤال، ولا أن يجاب، لكن السيدة "جريفين" قالت: "يعرف السيد هود كل ما تحلم به".

قال "هارفي" متعجبًا: "لكن هذا مدهش.. انتهى طلاء أبي الأزرق وهو يطلي الأفيال به؛ لذا فأحدهما بعينين زرقاوين والآخر بعينين خضراوين. نفس ما حدث. نفس ما حدث".

سألته السيدة "جريفين": "هل سرك هذا إذن؟"

قال "هارفي" إنه قد سره، لكن لم تكن هذه هي الحقيقة. أصابه الخوف من الحصول على نفس القارب وهو يعرف أن الحقيقي مفقود.. وكأن الوقت قد استدار على عقبيه، وأصبح طفلاً صغيرًا ثانية.

سمع "ويندل" يضرب الثلج بقدميه عند الباب الأمامي، وشعر بحرج مفاجئ من تلك الهدية الطفولية الماثلة بين يديه. أمسكها ولفها وهرول إلى أعلى، بدلاً من التوجه إلى أسفل لتناول العشاء.

لكن سريره بدا مرحبًا به لدرجة لا يمكن معها رفضه، وكانت معدته ممتلئة بما يكفي لليلة واحدة، لذا فبدلاً من النزول أغلق الستائر ليخفي الليل العاصف ويضع رأسه على وسادته.

كانت أجراس الكريسماس ما زالت تقرع في مكان بعيد، وحمله تكرار نغمها على النوم. حلم بأنه يقف على سلم بيته، باحثًا عن باب مفتوح يصل به إلى قلبه الدافئ. ثم قبضت عليه الرياح، وأبعدته عن المدخل، وحملته بعيدًا إلى نوم بلا أحلام.

* * *

8 - مياه جائعة

حدد اليوم الأول في بيت العطلة، بفصوله ومجرياته، نسق الأشياء الكثيرة التي جرت بعدها.

عندما استيقظ "هارفي" في الصباح التالي وجد الشمس تتدفق ثانية عبر شق في الستائر، لكن هذه المرة رقدت أشعتها في بركة دافئة على الوسادة إلى جواره. نهض بصيحة وابتسامة، وبقى على شفتيه واحدة منهما، أو كليهما معًا، طوال ما بقى من اليوم.

كان هناك الكثير ليفعله. العمل في بيت الشرجة في الصباح الربيعي، يتبعه تناول الطعام، ثم وضع الخطط لما بعد الظهر. الألعاب والساعات الكسولة في حرارة شمس الصيف، أحيانًا مع "ويندل" وأحيانًا مع "لولو"، ثم مغامرات على ضوء قمر الحصاد. ثم أخيرًا، الشتاء الذي أطفأ المشاعل في ثمرات قرع العسل المتخذة شكل الرؤوس، ثم امتلأت الأرض بالثلوج، والمرح البارد الذي ينتظرهم جميعًا في الهواء الثلجي، وترحيب عيد الكريسماس الدافئ مع انتهائهم.

كان يوم من العطلات، الثالث جميل كالثاني، والرابع جميل كالثالث، وسرعان ما بدأ "هارفي" ينسى وجود عالم ممل خارج الجدار، حيث ما زال فبراير الوحش الهائل نائمًا نومته الضجرة.

كان الشيءَ الوحيدَ الذي يذكره بالحياة التي تركها خلفه اتصال هاتفي أجراه معَ أمه وأباه ليخبرهما أن كل شيء على ما يرام، وأن الهدية التي تمناها

وتلقاها في الكريسماس الأول كانت سفينته. فكر مليًا في أن يختبرها على البحيرة، ليرى إن كانت ستطفو، لكنه لم يعقد العزم على هذا حتى بعد ظهر اليوم السابع.

أكل "ويندل" كثيرًا على الغداء، وأعلن أن الجو حار لا يصلح معه اللعب، فنزل "هارفي" وحيدًا إلى البحيرة، والسفينة تحت ذراعه. توقع وتمنى أن يجد "لولو" هناك لتصحبه، لكن ضفاف البحيرة كانت خالية.

حالما أحاط بعينيه المياه الكئيبة المظلمة كاد يتخلى عن فكرة إنزال السفينة، لكن هذا يعني الاعتراف لنفسه بشيء لم يتمن الاعتراف به؛ لذا توجه إلى الشاطئ، ووجد صخرة ليجثم عليها بدت له أقل خطورة من الباقيات، وأنزل سفينته في الماء.

سارت في الماء بمهارة، وسره أن يرى هذا. دفعها إلى الأمام لبعض الوقت، ثم رفعها ونظر داخلها ليرى إن كان الماء قد تسرب إليها. كانت خالية من الماء تمامًا؛ لذا أعادها إلى البحيرة ودفعها ثانية.

وهو يفعل هذا لمح سمكة ترتفع من قاع البحيرة، كان فمها مفتوحًا على اتساعه، وكأنها تقصد التهام السفينة الصغيرة كاملة. مد يده لينزع السفينة من المياه قبل أن تغرق أو تلتهم، لكنه في تسرعه فقد اتزانه على الصخرة الزلقة وسقط وهو يصيح في البحيرة. كانت المياه باردة كالثلج. سرعان ما أحاطت به تمامًا. أخذ يحرك يديه بيأس، محاولاً تخيل ظلام الأعماق أسفله، أو أسراب الأسماك الهائلة التي ترتفع من هذه الأعماق. وهو يحول وجهه لأعلى ناحية السطح، بدأ يسبح.

تمكن من رؤية سفينته تسبح فوقه، وقد انقلبت بسبب سقوطه. كان ركابها الرصاصيين قد بدءوا يغرقون. لم يحاول إنقاذهم، بل صعد إلى السطح شاهقًا ليأخذ نفسًا طويلاً وتحرك ناحية الشاطئ. لم يكن على مسافة بعيدة. في أقل من دقيقة رفع نفسه على الصخور وهرول بعيدًا عن الضفة، والمياه تقطر من أكمامه وبنطلونه وحذائه. وحين خرج من الماء تمامًا، ولم يعد هناك سمك جائع يحاول التهام أصابع قدميه، سقط منهارًا على الأرض.

رغم أن الفصل كان الصيف، في منتصفه تحديدًا، والشمس تستعر في مكان ما فوقه، فقد كان الهواء حول البحيرة باردًا، وسرعان ما بدأ في الارتجاف. لكن قبل أن يمضي في طريقه إلى الشمس نظر بحثًا عن سفينته. كان المكان الذي غرقت فيه معتمًا ببقايا كثيرة من الحطام، وكله على وشك الانضمام لباقي السفينة في القاع.

أما السمك الذي حسبه متلهفًا على التهامه فلم يجد علامة على وجوده. لعله سبح بعيدًا إلى الأعماق ليلتهم السفينة الغارقة. وتمنى "هارفي" إن كان هذا ما حدث، أن يختنق السمك وهو يأكل عشاءه.

فقد ألعاب كثيرة من قبل. كان لديه دراجة جديدة.. أغلى ممتلكاته! التي سرقت من على سلم بيته الأمامي قبل عامين. لكن هذه الخسارة آلمته كثيرًا، أكثر بكثير في الواقع. فكرة أن البحيرة لديها الآن شيئًا كان يمتلكه كانت بالنسبة إليه أسوأ من اللص الذي جرى ومعه دراجته. اللص من لحم ودم، أما البحيرة فليست كذلك. ذهبت ممتلكاته إلى مكان كابوسي، عامر بأشياء مخيفة، وشعر كأن جزء صغير منه نزل معها،إلى أعماق الظلام.

سار مبتعدًا عن البحيرة دون أن ينظر خلفه، لكن النسيم الذي قابله ليدفئ وجهه عندما خرج من الدغل، وصوت الطيور الذي سره، لم يتمكنا من تحويله عن الفكرة التي حاول تجاهلها عندما سقط في الماء. بالرغم من كل التسلية التي وجدها في بيت العطلة، فقد كان مكانًا مسكونًا بالخوف والوحشة، ورغم أنه حاول تجاهل شكوكه وكتم تساؤلاته، فلم يعد تجاهلها ممكنًا. وأيًا كان الشخص -أو الشيء- الذي يسكن المكان، فإن "هارفي" لن يرضى حتى يرى وجهه ويعرف طبيعته.

* * *

9 - بم تحلم؟

لم يذكر "هارفي" ما حدث عند البخيرة لأي أحد.. ولا حتى لـ"لولو"؛ لأنه شعر بالحماقة لسقوطه؛ ولأن البيت حاول جاهدًا أن يسره في الأيام التي تلت الحادث، حتى إنه كاد ينساه بالكامل. في تلك الليلة وجد قطعة من الخيط الملون مربوط إليها ورقة مكتوب فيها اسمه عند قاعدة شجرة الكريسماس، وتبعها عبر المنزل ليجد دراجة جديدة أكثر روعة من التي فقدها قبل عامين.

لكن هذه كانت أول شيء في سلسلة من المفاجآت التي خرج بها بيت العطلة عليه في تتابع سريع. ذات صباح على سبيل المثال تسلق "ويندل" و"هارفي" إلى بيت الشجرة ليكتشفا أن الفروع حوله ملينة بالببغاوات والقرود. وفي يوم آخر وسط عشاء عيد الشكر، نادت السيدة "جريفين" عليهم إلى حجرة المعيشة، حيث اتخذت ألسنة اللهب في المدفأة أشكال تنانين وأبطال، وحيث جرت معركة شرسة بين الطرفين. ووسط حرارة أصيل يوم ممتلئ بالكسل، استيقظ "هارفي" من نومه على صيحات، ورأى فريقًا من لاعبي الأكروبات الآليين يؤدون حركات مدهشة على الممشى العشبي.

لكن المفاجأة الأكبر بدأت مع ظهور أحد أقارب "ريكتوس".

قال وهو يخطو على درجة السلم ذات مساء: "اسمي جايف". كانت كل عضلة في جسده وكأنها تتحرك.. تختلج وتتراقص في هياج، حتى شعره الذي كان عبارة عن كتلة من الخصلات الزيتية المجعدة، بدا كأنه ينصت إلى لحن مجنون ويستجيب له. كان يتراقص على رأسه في حركات محمومة.

قال بنبرة لذيذة: "أرسلني الأخ ريكتوس لأرى كيف حالك".

رد "هارفي": "أنا على ما يرام. هل قلت الأخ ريكتوس؟"

قال "جايف": "إننا من نفس الأسرة تقريبًا. أتمنى أن تتصل بأسرتك بين الحين والآخر".

قال "هارفي": "أجل. اتصلت بهم بالأمس".

- "هل يفتقدونك؟"

- "لا أعتقد هذا".

- "وهل تفتقدهم؟"

هز "هارفي" رأسه وقال: "ليس حقًا".

لم يكن هذا صحيحًا مائة في المائة..

كان يحن إلى البيت، لكنه كان يعرف أنه لو عاد إلى البيت فسوف يذهب إلى المدرسة في اليوم التالي، ويتمنى لو كان قد بقي في بيت العطلة لفترة أطول.

قال "جايف" وهو يرقص رقصة غريبة صغيرة على درجات السلم: "إذن هل ستستفيد أقصى استفادة من الإقامة هنا؟"

قال "هارفي": "أجل. أريد فقط أن ألعب وأستمتع".

ابتسم "جايف" وقال: "ومن ليس كذلك؟ من ليس كذلك؟" اقترب من "هارفي" وهمس: "بمناسبة الاستمتاع.."

قال "هارفي": "ماذا؟"

- "أنت لم تنل من ويندل على تلك الخدعة التي مارسها معك".

قال "هارفي": "لا، لم أفعل".

- "لماذا؟"

- "لم أتمكن من التفكير في شيء مناسب".

أجابه "جايف" بمكر:

- "أنا واثق أننا يمكننا الوصول إلى شيء ننفذه معًا".

قال "هارفي": "لابد أن يكون شيئًا لا يمكنه التفكير فيه".

قال "جايف": "هذا ليس صعبًا.. قل لي.. ما هو وحشك المفضل؟"

لم يضطر "هارفي" للتفكير كثيرًا.. قال وعلى شفتيه ابتسامة: "مصاص الدماء.. وجدت ذلك القناع.."

قال "جايف": "الأقنعة بداية جيدة.. لكن مصاصي الدماء بحاجة للتحليق وسط الضباب"، ثم فرد ذراعيه وثنى أصابعه الطويلة مثل مخالب وحش مخيف وأكمل:

- ".. والنزول والتقاط ضحاياهم، ثم التحليق ثانية إلى القمر.. أرى هذا في خيالي".

قال "هارفي": "كذلك أنا.. لكنني لست وطواطًا".

- "إذن؟"

- "إذن كيف أحلق؟"

قال "جايف": "آه.. سنشرك مار في هذا. فبعد كل شيء ما فائدة عيد كل القديسين دون تحويل أو اثنين؟" ثم نظر إلى الساعة الكبيرة المستقرة عند منبسط السلم وقال: "ما زال لدينا وقت لنفعل هذا الليلة. يمكنك النزول وإخبار ويندل أنك ستقابله بالخارج. سأصعد إلى السطح لأعثر على مار. قابلنا هناك".

- "لم أصعد إلى سطح البيت قط".

- "هناك باب عند منبسط السلم الأعلى. أراك هناك بعد دقائق".

- "عليّ بإحضار قناعي وسترتي وما إلى هذا".

قال "جايف": "لن تحتاج القناع الليلة.. ثق بي. والآن أسرع. الوقت يضيع".

استغرق "هارفي" دقيقة أو اثنتين ليخبر "ويندل" أن يسبقه. كان واثقًا أن "ويندل" سيرتاب في شيء، وعلى الأرجح سيجهز هجمة مضادة، لكن "هارفي" عرف أنه و"جايف" لديهما خدعة أقوى مما يتوقع "ويندل"، وإن كان خبيرًا في خطط الإصابة بالصدمات فهو لن يتوقع ما سيحدث. مع الانتهاء الجزء الأول من الخطة صعد ثانية ليجد الباب الذي ذكره "جايف"، وتسلقه إلى السطح.

لم تزعجه الارتفاعات مطلقًا، كان يحب الوقوف فوق العالم والإطلال عليه من أعلى.

ناداه "جايف": "هنا!" وسار "هارفي" بين المماشي الضيقة وعبر الأسطح المنحدرة إلى حيث وقف صديقه المتآمر.

قال "جايف": "أنت واثق الخطى!"

- "لا مشكلة".

قال صوت ثالث: "وماذا عن الطيران؟" ثم خرجت صاحبة الصوت من بين ظلال إحدى المداخن.

قال "جايف": "هذه مار.. عضوة أخرى من أسرتنا الصغيرة".

على النقيض من "جايف" الذي بدا رشيقًا بما يكفي للمشي على حواف السطح إن رغب في ذلك، فقد بدت "مار" ثقيلة الظل نوعًا. توقع "هارفي" أن يرى أصابعها تترك آثارًا فضية على الأحجار التي تلمسها، أو قرون ناعمة تظهر من رأسها الأصلع. كانت بدينة للغاية، ولحمها لا يكاد يلتصق بعظمها. فحول فمها وعينيها ورقبتها ومعصمها كان لحمها مترهلاً في طبقات. مدت يدها ونخست "هارفي".

- "قلت: ماذا عن الطيران؟"

قال "هارفي" وهو يدفع يدها بعيدًا: "ماذا عنه؟"

- "هل طرت كثيرًا؟"

- "طرت إلى فلوريدا ذات مرة".

قال له "جايف": "لم تقصد الطيران في طائرة".

- "آه.."

قالت "مار": "ربما في الأحلام؟"

- "آه.. أجل، إنني أحلم بالطيران".

ردت "مار" وهي تبتسم برضاء: "هذا جيد". لم يكن في فمها سنة واحدة.

حدق "هارفي" في فمها الفارغ باشمئزاز.

قالت لـ"هارفي": "أنت تتساءل أين ذهبت جميعًا، أليس كذلك؟ هيا. اعترف".

هز "هارفي" رأسه وقال: "أجل. فعلاً".

- "أخذها قارنا، ذلك الوحش السارق. كان لدي أسنان رائعة. أسنان جميلة".

قال "هارفي": "ومن قارنا؟"

قال "جايف": "لا عليكَ" وهو يسكت "مار" قبل أن ترد:

- "تحركي وإلا سيفقد اللحظة المناسبة".

غمغمت "مار" بشيء ما بصوت خفي وقالت: "هيا يا ولد" وهي تمد ذراعيها تجاه "هارفي". كانت لمستها باردة كالثلج.

قال "جايف" وأصابع "مار" تتحرك أمام وجهه وتلمسه هنا وهناك: "إحساس غريب، أليس كذلك؟ لا تقلق. إنها تعرف ما تفعله".

- "وما هو".

- "تغييرك".

- "إلى ماذا؟"

قال "جايف": "أخبرها أنت. لن تستغرق طويلاً؛ لذا استمتع بالتحول. هيا، أخبرها بشأن التحول إلى مصاص دماء".

قال "هارفي": "هذا ما أريد أن يراه ويندل".

قالت "مار" بنعومة وأصابعها تطبق أكثر على جلده:

- "مصاص دماء.."

- "أجل، أريد أن يكون لي أنياب، مثل الذئب، ورقبة حمراء، وجلد أبيض، وكأنني ميت منذ ألف عام".

قال "جايف": "ألفي عام؟".

قال "هارفي" وقد بدأ يستمتع باللعبة: "عشرة آلاف عام! وعيون مجنونة ترى في الظلام، وأذنان مدببتا الطرف، مثل أذن الوطواط.."

قالت "مار": "انتظر! يجب أن أفعل كل هذا على الوجه الصحيح".

كانت أصابعها تتحرك بقوة عليه، وكأن جلده طين تشكله. كان يشعر بوخز في وجهه، وأراد أن يمد يده ويلمسه، لكنه كان خائفًا من إفساد عملها.

قال "جايف": "ولابد من وجود فراء.. فراء أسود ناعم على رقبته.."

امتدت يدا "مار" إلى رقبته، وشعر بالفراء ينمو حيث لمسته.

قال "هارفي": ".. والأجنحة.. لا تنسي الأجنحة!"

قال "جايف": "أبدًا".

قالت له "مار": "افرد ذراعيك يا ولد".

فعل كما أمرت، وجرت بيديها عليهما وهي تبتسم.

قالت: "إنها جيدة.. إنها جيدة".

نظر إلى نفسه. لدهشته وجد أصابعه مشوهة وحادة، وأغشية جلدية معلقة من ذراعيه. كانت الرياح تضربه، تهدده بأن تحمله من فوق السطح.

قالت "مار" وهي تتراجع لترى عملها: "أنت تعرف أنك تلعب لعبة خطرة، أليس كذلك؟ قد تحطم رأسك أو تخيف صديقك ويندل. أو كليهما".

قال "جايف": "لن يسقط يا امرأة! إنه متمكن. يمكنني معرفة هذا من النظر إليه" ثم نظر إلى "هارفي" بعيون نصف مغمضة وأضاف: "لن أندهش لو كنت مصاص دماء في حياة أخرى يا ولد".

قال "هارفي": "مصاصو الدماء ليس لهم حيوات أخرى" وكانت الكلمات صعبة النطق مع وجود الأنياب.. "إنهم يعيشون إلى الأبد".

قال "جايف": "هذا صحيح.. فعلاً! فعلاً!"

قالت "مار": "لقد انتهيت. يمكنك الذهاب الآن يا ولد".

هبت الرياح قوية، وإن لم يكن "جايف" ممسكًا به وهما يسيران على طرف السطح، كان "هارفي" ليسقط.

همس "جايف" مشيرًا للأسفل إلى الظلال: "ها هما صديقاك".

لدهشته وجد "هارفي" أنه يمكنه رؤية "ويندل" بوضوح، حتى رغم الظلام التام في الدغل. كما سمعه أيضًا.. كل نفس يخرج منه ..

قال "جايف" بصوت كالهسيس وهو يضع يده على ظهر "هارفي": "حان الوقت".

قال "هارفي": "ماذا أفعل؟ هل أرفرف بجناحي أم ماذا؟!"

قال "جايف": "اقفز! ستتولى الرياح العناية بالباقي. إما الرياح أو الجاذبية". ومع كلمته دفع "هارفي" من فوق الحافة إلى الهواء.

* * *

10 - السقوط في الخطيئة

لم تكن الرياح موجودة لتحمله. هوى مثل طوبة، وفارقت حنجرته صرخة رعب بيّن. رأى "ويندل" يلتفت، ورأى نظرة الرعب المهلك تظهر على وجهه، ثم جاءت الرياح من مكان ما، باردة وقوية، ومع مس ساقيه للشجيرات شعر بنفسه يرتفع لأعلى وأعلى، ناحية السماء.

تحولت صرخته إلى صيحة، ورعبه إلى استمتاع. كان القمر أكبر مما اعتاد أن يراه، وكان وجهه الأبيض الواسع يملأ ناظريه، مثل وجه أمه، ينحني عليه يقبله قبلة المساء. فيما عدا أنه لم يكن بحاجة إلى النوم الليلة، لا، ولا لأمه لتتمنى له أحلام سعيدة. كان هذا أفضل من الأحلام.. أن يطير مع الرياح بجناحيه، والعالم يرتعد تحته خوفًا من ظله.

نظر إلى "ويندل" ثانية، ورآه يجري إلى أمان البيت.

لا لن تفعل.. هكذا قال لنفسه، وهو يحلق بجناحيه ثانية مثل أشرعة جلدية، نزل منقضًا على ضحيته. صك مسامعه صرخة تجمد الدماء في العروق، وللحظة حسب أنها الرياح. ثم أدرك أن حنجرته هي التي صدر عنها ذلك الصوت غير الآدمي، وتحولت الصرخة إلى ضحكة، ضحكة جامحة مجنونة.

قال "ويندل" الباكي وهو يجري: "لا.. من فضلك.. لا! ليساعدني أحد! ليساعدني أحد!"

كان "هارفي" يعرف أنه قد نال انتقامه بالفعل.. "ويندل" مرعوب إلى أقصى حد. لكنه شعر باستمتاع شديد منعه من التوقف. أحب إحساس النزول

فوقه، والقمر البارد على ظهره. أحب حدة رؤيته، وقوة مخالبه. لكن أكثر شيء أحبه هو الخوف الذي تسبب فيه، وأحب نظرة "ويندل" التي ارتسمت على وجهه عند التفاته إليه، وصوت الذعر الذي ملأ صدره. حملته الرياح إلى داخل الدغل، وهو يحط على الأرض سقط "ويندل" على ركبتيه وبدأ يستجدي الرحمة.

- "لا تقتلني! أرجوك، أرجوك، أتوسل إليك ألا تقتلني!"

رأى "هارفي" وسمع ما يكفيه. نال انتقامه. حان وقت إنهاء اللعبة، قبل أن يفسد المرح. فتح فمه ليعلن عن نفسه، لكن "ويندل" رأى الحلق الأحمر والمخالب الذنبية، وظن أن هذا يعني الموت الأكيد، فبدأ جولة أخرى من الاستجداء. لكن هذه المرة لم يكن تضرعًا عاديًا.

قال: "أنا لست بدينًا بما يكفي للاستمتاع بأكلي.. لكن هناك ولد آخر في مكان ما هنا.."

صدر عن "هارفي" صوت أشبه بالهدير عندما سمع هذا.

قال "ويندل": "يوجد ولد! أقسم لك. ولحمه أكثر مني!"

قال صوت ما من بين الشجيرات إلى جانب "هارفي": "أنصت إلى الطفل". نظر خلفه فوجد "جايف"، وجسده الرفيع يكاد يكون مرئيًا بين أشواك الأشجار.. "إنه يتمنى موتك يا هارفي يا صغيري".

لم يسمع "ويندل" أي من هذا. كان ما زال يعلن عن مدى لذة طعم صديقه، وهو يرفع قميصه ويهز بطنه ليثبت مدى بدانته.

قال باكيًا: "أنت لا تريدني.. خذ هارفي! خذ هارفي!"

قال "جايف": "عضه.. هيا. اشرب قليلاً من دمه. لم لا؟ الدهن ليس جيدًا، لكن الدم ساخن، الدم لذيذ". أخذ يرقص رقصة صغيرة وهو يتكلم، منتقلاً من قدم إلى الأخرى على لحن أغنيته.. "لا تضيع المذاق! اشرب الدم المُراق!"[1]

وما زال "ويندل" يبكي وينحب، غارقًا في دموعه.. "أنت لا تريدني. اعثر على هارفي! اعثر على هارفي!"

وكلما بكى أكثر، أصبحت أغنية "جايف" معقولة لـ"هارفي". من هذا الولد السخيف "ويندل" على أية حال؟ كان متلهفًا على تقديم "هارفي" على العشاء فيا له من صديق. إنه ليس سوى لقمة لذيذة. أي مصاص دماء جدير بأجنحته يمكنه مضغ رأسه حال نظره إليه. ولكن..

قال "جايف": "ماذا تنتظر؟ لقد قمنا بمجهود كبير لنجعلك مصاص دماء لكي.."

قال "هارفي": "أجل، لكنها لعبة".

قال "جايف: "لعبة؟ لا، لا يا ولد. إنها أكثر من هذا. إنه تعليم".

لم يكن "هارفي" يعرف ماذا يقصد بهذا، ولم يكن واثقًا من أنه يريد أن يعرف.

قال "جايف" بصوت كالهسيس: "إن لم تنقض قريبًا فسوف تفقده".

---

[1] بتصرف من المترجم.

فعلاً فقد بدأت دموع "ويندل" تقل، وبدأ ينظر إلى مهاجمه نظرة تعجب.

غمغم: "هل أنت.. هل ســ.. تدعني أذهب؟"

أحس "هارفي" بيد "جايف" على ظهره. قال "جايف": "هيا، افعلها!"

نظر "هارفي" إلى وجه "ويندل" المبتل بالدموع ويديه المرتجفتين. إذا كان الموقف معكوسًا، فهل كنت سأواجهه بشجاعة؟ الإجابة بالطبع، كما قال لنفسه، هي لا.

قال "جايف": "الآن وإلا لا للأبد".

قال "هارفي": "إذن هي لا للأبد.. للأبد!"

جاءت الكلمة في صوت أشبه بالزئير المكتوم، وهرب "ويندل" من أمامه وهو يصرخ بأعلى صوته. لم يطارده "هارفي".

قال "جايف": "لقد خيبت أملي يا ولد. حسبت لديك غريزة القاتل".

قال "هارفي" وهو خجل قليلاً من نفسه: "ليست لدي".

شعر بأنه جبان، حتى رغم معرفته بأنه قام بالتصرف الصحيح.

قال صوت آخر: "كان هذا ضياعًا بلا فائدة للسحر". ثم ظهرت "مار" من بين الشجيرات، وذراعيها مليئان بفطريات هائلة الحجم.

قال "جايف": "أين وجدت هذه؟"

أجابت "مار": "في المكان المعتاد".. ثم منحت "هارفي" نظرة احتقار وأضافت: "أعتقد أنك تريد جسدك القديم".

- "أجل، من فضلك".

قال "جايف": "علينا أن ندعه هكذا. سيبدأ في مص الدماء عاجلاً أو آجلاً".

قالت "مار": "لا.. لماذا نضيع السحر على ولد تعيس حقير الشأن كهذا؟!"

لوحت بيدها تجاه "هارفي" باستخفاف، فشعر بالقوة التي ملأت أطرافه وحولت وجهه تنسحب منه. شعر بالارتياح بالطبع لإحساسه بزوال تأثير السحر، لكن جزء صغير منه حزن على الخسارة.

وخلال لحظات عاد ثانية إلى وضعه كولد طبيعي، ضعيف بلا أجنحة.

ومع إزالة التعويذة أدارت "مار" ظهرها له ومضت إلى الظلام. لكن "جايف" بقى قليلاً ليدلي بكلمته الأخيرة لـ"هارفي".

قال: "لقد فوت فرصتك يا صغيري. كان يمكنك أن تصبح من العظماء".

قال "هارفي" وهو يخفي تعاسة غريبة أحسها:

- "كانت خدعة، هذا كل شيء. خدعة عيد كل القديسين. لم تعن شيئاً".

قال "جايف" بغموض: "هناك غيرك ممن سيخالفونك الرأي.. هؤلاء الذين يعرفون أن كل القوى الكبرى في العالم هي مص الدماء وسرقة الأرواح. وعلينا أن نخدمهم. جميعنا نخدمهم. نخدمهم إلى يوم مماتنا".

حدق بقوة في "هارفي" طوال خطبته القصيرة الغريبة، ثم وهو يتخذ خطوة رشيقة، تراجع إلى الظلال واختفى.

وجد "هارفي" "ويندل" في المطبخ، كان في يده قطعة "هوت دوج" وزجاجة مياه غازية في يده الأخرى، وكان يخبر السيدة "جريفين" بشأن ما رآه. أسقط طعامه عندما دخل "هارفي" وصاح بارتياح: "أنت حي! أنت حي!"

قال "هارفي": "بالطبع أنا حي.. ولم لا أكون حيًا؟"

- "هناك شيء بالخارج. وحش مرعب. كاد يأكلني. حسبته أكلك".

نظر "هارفي" لأسفل إلى يديه وقدميه.

قال: "لا.. ولا قطعة صغيرة حتى".

قال "ويندل": "أنا مسرور. أنا مسرور جدًا جدًا. أنت أفضل أصدقائي، إلى الأبد".

قال "هارفي" لنفسه: كنت مصاص دماء منذ خمس دقائق، لكنه لم يتذكر شيئًا من هذا. ربما سيأتي وقت يمكنه فيه إخبار "ويندل" بشأن تحوله والأغراء، لكن هذا ليس بالوقت المناسب، فقال ببساطة:

- "أنا جائع". ثم جلس إلى المائدة إلى جانب صديقه المرعوب؛ ليضع شيئًا أكثر حلاوة من الدم في معدته.

* * *

11 – تحول

لم يجد أيًا من "ويندل" ولا "الولو" في اليوم التالي. قالت السيدة "جريفين" إنها رأتهما قبل الإفطار، ثم اختفيا.. لذا بقى "هارفي" وحده مع أفكاره. حاول ألا يفكر فيما حدث ليلة أمس، لكنه لم يستطع.

عاودته أجزاء من الحوار، وتفكر فيها طوال اليوم. ماذا عن "جايف" مثلاً عندما أخبر "هارفي" أن تحويله إلى مصاص دماء لم يكن لعبة، بل تعليمًا؟ وما نوع الدروس التي يتعلمها من القفز من فوق السطح وإخافة "ويندل"؟

وماذا عن سرقة الأرواح، وكيف يجب خدمة من ذكرهم.. ماذا عنى؟ هل السيد "هود" الذي تكلم عنه "جايف"، هو تلك القوة العظيمة التي يخدمونها جميعًا؟ إذا كان "هود" في مكان ما في البيت، فلماذا لم يقابله أي أحد، لا "الولو" ولا "ويندل" ولا هو؟ سأل "هارفي" صديقيه عن "هود" وتلقى نفس الإجابة من الاثنين: لم يسمعا وقع أقدامه، ولا همساته، ولا ضحكاته. إذا كان السيد "هود" هنا، فأين يختبئ؟ ولماذا؟

أسئلة كثيرة، وإجابات قليلة.

ثم وكأن هذه الألغاز ليست كافية، فأتاه لغز جديد يحيره. في فترة بعد الظهر من ذلك اليوم، وهو يجلس في ظل بيت الشجرة، سمع صرخة غيظ، فنظر عبر الأغصان ليرى "ويندل" يجري على الممشى العشبي. كان مرتديًا معطف وحذاء برقبة، رغم أن الجو كان حارًا، وكان يجري مثل المجانين.

صاح "هارفي" مناديًا عليه، لكن ندائه إما لم يسمعه أو تجاهله، فنزل الشجرة وانطلق يطارد "ويندل" حول جانب البيت. وجده في البستان بوجه أحمر محتقن يغمره العرق.

قال: "ماذا يجري؟"

قال "ويندل" وهو يطحن بقدمه تفاحة نصف فاسدة: "لا يمكنني الخروج! أريد المغادرة يا هارفي لكن لا يوجد طريق للخروج!"

- "بالطبع يوجد!"

- "إنني أحاول منذ ساعات وساعات، لكن الضباب يرسلني إلى حيث أتيت".

- "اهدأ!"

قال "ويندل" وقد صارت دموعه قريبة: "أريد العودة إلى البيت يا هارفي. ليلة أمس كانت كثيرة عليّ. ذلك الشيء الذي رغب في دمي. أعرف أنك لا تصدقني.."

قال "هارفي": "أصدقك.. أصدقك فعلاً".

- "حقًا؟"

- "بالطبع".

- "حسن، ربما إذن تريد المغادرة أنت الآخر؛ لأنني لو رحلت فسوف يطاردك".

قال "هارفي": "لا أعتقد هذا".

قال "ويندل": "إنني أكذب على نفسي بشأن هذا المكان. إنه خطير. أجل. أعرف أنه يبدو رائعًا، لكن.."

قاطعه "هارفي" قائلاً: "ربما عليك إبقاء صوتك منخفضًا. علينا بالكلام في هذا الموضوع بهدوء، على انفراد".

قال "ويندل" بعيون واسعة: "أين إذن؟ المكان كله يراقبنا، ويسمعنا. ألا تشعر بهذا؟"

- "ولماذا يفعل هذا؟"

قال "ويندل" بحدة: "لا أعرف. لكن ليلة أمس قلت لنفسي إنني إن لم أغادر فسوف أموت هنا. سأختفي ذات ليلة، أو أجن مثل لولو". ثم خفض صوته ليقارب الهمس وأضاف: "إننا لسنا أول من يصلوا إلى هنا. ما رأيك بالملابس التي رأيتها بالأعلى؟ إنها معاطف وأحذية وقبعات، وهي خاصة بأولاد آخرين مثلنا".

ارتجف "هارفي". هل لعب لعبة استجداء العطايا وهو يرتدي حذاء ولد ميت؟ قال "ويندل" والدموع تنهمر على وجهه: "أريد الخروج من هنا. لكن لا يوجد مخرج".

قال "هارفي" بتعقل: "إذا كان هناك مدخل فلابد من وجود مخرج. سنذهب إلى الجدار".

وهكذا مضى إلى الأمام، و"ويندل" في عقبيه، ودار حول المدخل الأمامي للبيت، وإلى الجدار الممشى اللطيف. بدا لهما جدار الضباب مسالمًا تمامًا وهما يقتربان منه. قال "ويندل" محذرًا: "احذر.. إنه مُضلِّل ويؤدي بعض الخدع".

هدأ "هارفي" من خطوه، متوقعًا أن يتحرك الجدار، أو أن يمتد إليه. لكنه لم يفعل شيئًا. وبعد أن اكتسب مزيدًا من الجرأة تلف إلى الضباب، متوقعًا الخروج إلى الجانب الآخر. لكن بخدعةٍ ما، دار حول نفسه دون أن يدري، وخرج من الجدار ليجد البيت أمامه. قال لنفسه: "ماذا جرى؟" متعجبًا.. خطى ثانية إلى الضباب.

حدث نفس الشيء. يدخل، ويخرج، مواجهًا الجانب العكسي لمقصده. حاول ثانية، ومرة أخرى، لكن نفس الخدعة واجهته كل مرة، حتى أحس "هارفي" بنفس إحباط وغيظ "ويندل" قبل نصف ساعة.

قال "ويندل": "هل صدقتني الآن؟"

- "أجل".

- "إذن ماذا نفعل؟"

همس "هارفي" قائلاً: "لن نصيح.. علينا فقط أن نمضي يومنا متظاهرين بأننا تخلينا عن فكرة المغادرة. وسوف أجري بعض البحث".

بدأ تحقيقاته حالما عادا إلى البيت، حيث دخل يبحث عن "لولو". كان باب حجرتها مغلقًا. طرق عليه وناداها. لم يتلق إجابة؛ لذا أدار المقبض ووجد الباب مفتوحًا.

قال: "لولو؟ إنه أنا، هارفي".

لم تكن موجودة، لكنها ارتاح لرؤية أنها نامت على سريرها، وأنها على الأرجح قد لعبت مع حيواناتها الأليفة مؤخرًا. كانت أبواب بيت الدمية مفتوحة، والسحالي بالخارج في كل الأركان.

لكن كان هناك أمر واحد غريب. صوت الماء الجاري قاده إلى الحمام، حيث وجد حوض الاستحمام ممتلئًا، وملابس "الولو" مبعثرة في برك مائية صغيرة على البلاط.

سأل السيدة "جريفين" عندما نزل: "هل رأيتِ لولو؟"

أجابته قائلة: "ليس خلال الساعات الأخيرة. لكنها تقضي وقتها وحدها". نظرت السيدة "جريفين" بقوة ناحية "هارفي" وأضافت: "ما كنت لأعير هذه المسألة اهتمامًا لو كنت مكانك يا طفلي. فالسيد هود لا يحب الضيوف كثيري الأسئلة".

قال "هارفي": "كنت فقط أتساءل عن مكانها".

قطبت السيدة "جريفين" جبينها، وبدأ لسانها يتحرك على جدار وجنتيها من الداخل وكأنها تريد الكلام، لكنها لم تجرؤ.

أكمل "هارفي" كلامه متعمدًا إثارة السيدة "جريفين": "المهم أنني لا أعتقد في وجود السيد هود".

قالت وصوتها وتقطيبتها تعمقان: "احذر. لا يجب أن تتكلم عن السيد هود بهذه الطريقة".

قال "هارفي" مدركًا وهو يتكلم أنه فقد إحساسه بمرور الأيام في البيت: "أنا هنا منذ أيام وأيام.. ولم أره لمرة واحدة. أين هو؟"

اقتربت السيدة "جريفين" من "هارفي" ويدها مرفوعة، وللحظة حسب أنها ستضربه. لكن بدلاً من هذا أمسكت بكتفيه وهزته.

قالت: "أرجوك يا طفلي!. ارض بما تعرف. أنت هنا لتستمتع بوقتك لبعض الوقت. ويا طفلي.. الوقت قليل. إنه يطير. يا ربي، إنه يطير!"

قال "هارفي": "إنها مجرد بعض الأسابيع. لن أبقى هنا إلى الأبد". والآن حان وقته ليحدق فيها.. قال: "أم سأفعل؟"

قالت: "توقف".

قال وهو يهز قبضتها عليه: "أنت تعتقدين أنني سأبقى هنا للأبد..أليس كذلك؟ ما هذا المكان ؟ هل هو سجن؟"

هزت رأسها.

قال:"لا تقولي لي أكاذيب. إننا محبوسين هنا. ألسنا كذلك؟"

والآن، وإن كانت ترتعد خوفًا من رأسها إلى أخمص قدميها، جرأت على إصدار إيماءة صغيرة من رأسها. سألها: "جميعنا؟" أومأت ثانية.. "وأنتِ أيضًا؟"

همست: "أجل. أنا أيضًا. ولا يوجد مخرج. صدقني، إذا حاولت الهرب ثانية فسوف يلاحقك قارنا".

قال: "قارنا.." متذكرًا الاسم من الحوار الذي جرى بين "جايف" و"مار".

قالت السيدة "جريفين": "إنها بالأعلى.. على السطح. هناك حيث يعيش أربعتهم.. ريكتوس ومار وقارنا.."

- ".. وجايف".

- "أنت تعرف".

- "قابلتهم جميعًا إلا قارنا".

قالت السيدة "جريفين": "التأمل ألا تقابله. والآن أنصت إليّ يا هارفي. رأيت أطفالاً كثيرين يأتون إلى البيت، بعضهم حمقى، وبعضهم أنانيين، وبعضهم لطفاء، وبعضهم شجعان، لكن أنت.. أنت صاحب أصفى روح أخبرها منذ رأتك عيني. أريدك أن تحصل على أقصى قدر ممكن من الاستمتاع طوال إقامتك هنا. استفد من الساعات جيدًا؛ لأنها أقل مما تعتقد".

أنصت "هارفي" إليها بصبر. ثم وعندما انتهت قال: "ما زلت أريد مقابلة السيد هود".

قالت السيدة "جريفين" وقد غضبت من إصراره: "السيد هود مات".

- "مات؟ أتقسمين على هذا؟"

أجابته: "أقسم بروح قط الأدلة الشجاع، أقسم إن السيد هود ميت. لذا لا تسأل مزيدًا من الأسئلة عنه ثانية".

كانت هذه هي أول مرة تقترب فيها السيدة "جريفين" من إصدار أمر لـ"هارفي"، ورغم أنه أراد أن يضغط عليها، فقد قرر ألا يفعل. بدلاً من هذا قال إنه آسف لإثارة الموضوع، ولن يفعل هذا ثانية، ثم غادرها وأحزانها السرية.

* * *

12- ما تخلى عنه الطوفان وما أخذه

قال "ويندل" عندما ذهب "هارفي" إلى حجرته: "إذن؟ ما هي الحكاية؟"

هز "هارفي" رأسه وقال: "كل شيء على ما يرام. لم لا نستمتع بوقتنا طالما هذا في إمكاننا؟"

قال "ويندل": "نستمتع بوقتنا؟ كيف يمكننا الاستمتاع بوقتنا ونحن محبوسين؟"

قال "هارفي": "الحال أفضل هنا من العالم الخارجي". نظر "ويندل" إليه بدهشة، فأكمل: "هذا صحيح. أليس كذلك؟"

أمسك بيد "ويندل" بينما هو يتكلم، فأدرك الأخير وجود كرة ورقية في كف "هارفي"، والتي كان يحاول تمريرها إليه.

قال مختلسًا نظرة إلى يديه وهو يتكلم: "ربما عليك أن تجد ركنًا هادئًا وتقرأ فيه قليلاً".

وصلت الفكرة إلى "ويندل". أخذ المذكرة المكورة من يد "هارفي" وقال: "ربما سأفعل هذا".

قال "هارفي": "جيد.. سأذهب واستمتع بالشمس قليلاً بينما هي ساطعة".

كان ما فعله ممتازًا. فلديه خطط كثيرة قبل حلول منتصف الليل، وهو الوقت الذي أخبر فيه "ويندل" في الورقة أن يتقابلا ليهربا. حتى القوى التي

تحرس المنزل تحتاج للراحة أحيانًا، فمسألة تدوير الفصول على مدى اليوم ليست سهلة، ومن بين كل الساعات الممكنة للفرار، فمنتصف الليل تبدو الساعة المناسبة.

لكنه لم يفترض أن الهروب سيكون سهلاً. فالبيت فخ منذ عقود، وربما قرون، من يعرف عمر الشر الذي يسكنه؟ وحتى في منتصف الليل فلن يكون من الحماقة ترك المخرج مفتوحًا.

عليهما أن يتحركا بسرعة ومهارة، ولا يصابا بالذعر أو يفقدا أعصابهما حالما يصلا للضباب. فالعالم الواقعي في مكان ما هناك. كل ما عليهما أن يفعلانه هو أن يجداه.

عرف عندما رأى "ويندل" في عيد كل القديسين أنه قد قرأ الرسالة وفهمها. كان في عينيه نظرة تقول: أنا جاهز. أنا متوتر لكنني مستعد.

مر ما بقي من المساء عليهما مثل أداء مسرحية غريبة، كانا هما الممثلين فيها، والبيت (أو ما يسكنه) هو الجمهور. استمتعا بوقتيهما وكأنها ليلة مثل باقي الليالي، حيث لعبا لعبة استجداء العطايا وضحكا كثيرًا وهما يلعبان (رغم أنهما ارتجفا في أحذيتهما المستعارة)، ثم عادا لتناول عشائهما وقضاء ما تمنيا أن يكون آخر كريسماس لهما في البيت. ثم فتحا هديتهما.. كلب آلي لـ"ويندل"، ومعدات الساحر لـ"هارفي"، وألقيا تحية المساء على السيدة "جريفين"، وكانت وداعًا بالطبع وليست تحية مساء لكن "هارفي" لم يجرؤ على إخبارها، ثم مضيا ليناما.

هدأ البيت، وازداد هدوءه. كف الثلج عن النزول، وكف هبوب الرياح عند المداخن. كان أعمق صمت يسمعه "هارفي"، عميق لدرجة أنه سمع خفقان

قلبه في أذنيه، وكل حركة لجسده على أغطية السرير كانت أشبه بطرق الطبول.

وقبل منتصف الليل بقليل نهض وارتدى ثيابه، وتحرك ببطء وحذر صانعًا أقل قدر ممكن من الجلبة. ثم توجه إلى الردهة، متسللاً من ظل إلى ظل كاللصوص، وهرول على السلم وإلى الليل.

لم يخرج من الباب الأمامي، فقد كان ثقيلاً ويَصِرّ بصوت مرتفع، بل من باب المطبخ، حيث خرج من جانب البيت.

ورغم توقف الرياح، فقد كان الهواء ما زال باردًا وسطح الأرض المغطى بالثلج شديد البرودة. صنع الثلج صوتًا وهو يسير عليه بغض النظر عن مدى خفة خطواته. في البداية تمنى أن تكون أعين وآذان البيت مغمضة في هذا الوقت، وإن لم تكن مغمضة فكيف لو يوقفه أحد؟ وأدرك أنه ربما يصل إلى الجدار دون لفت الانتباه.

لكن ما إن وصل إلى ركن البيت حتى انسحب منه الأمل مع مجيء شخص من خلفه ينادي اسمه. تجمد في مكانه متمنيًا أن يخفيه الظلام، لكن الصوت عاد ثانية مناديًا اسمه. لم يكن صوتًا يعرفه. ليس صوت "ويندل" بالطبع، ولا صوت السيدة "جريفين"، ولا "جايف"، ولا "ريكتوس"، ولا "مار". كان هذا صوتًا واهنًا.. صوت شخص لا يكاد يقدر على تشكيل مقاطع اسمه.

- *"هاررر.. فففيي.."*

فجأة، تعرف على الصوت، وارتفع في أذنيه صوت خفقات قلبه الذي سمعه منذ تسلل من سريره، وارتفع حتى كاد يغطي على صوت النداء.

غمغم: "لولو؟"

قال الصوت: "*أأأأجل*".

- "أين أنت؟"

قالت: "*قريبة*.."

حدق في الدغل متمنيًا أن يلمحها، لكن كل ما رآه كان ضوء النجوم يلمع على أوراق الأشجار المتجمدة.

قالت بكلمات ثقيلة: "أنت راحل.."

همس قائلاً: "أجل. وعليك أن تأتي معنا".

اخذ خطوة في اتجاهها، وهو يفعل تراجع عنه اللمعان الذي حسبه صقيعًا يغطي الأوراق. ماذا كانت ترتدي ليلمع هكذا؟

قال: "لا تخافي".

قالت: "لا أريدك أن تنظر لي".

- "ما المشكلة؟"

قالت: "أرجوك.. فقط ابق بعيدًا".

تراجعت عنه أكثر، وبدا أنها فقدت اتزانها وهي تتراجع. سقطت على الأرض واهتز الدغل من حولها. تقدم منها "هارفي" ليمد لها يد المساعدة، لكنها بكت بصوت عال حتى إنه تجمد في مكانه.

قال: "لا أريد غير المساعدة".

أجابته وكل كلمة من كلماتها محملة بالألم: "لا تقدر على مساعدتي. فات الأوان. عليك فقط أن.. تذهب.. بينما تستطيع. أردت أن.. أعطيك شيئًا يذكرك بي".

رآها تتحرك في الظلال متجهة ناحيته.. قالت: "انظر بعيدًا".

أدار رأسه بعيدًا عنها.

- "والآن أغمض عينيك. وعدني أنك لن تفتحهما".

أغمض عينيه وقال: "أعدك".

ثم سمعها تتحرك مقتربة منه وسمع صوت تنفسها المجهد.

قالت: "افتح يدك".

كان صوتها قريبًا منه. عرف أنه لو فتح عينيه فسوف يراها وجهًا لوجه. لكنه وعدها، وصمم على الاحتفاظ بوعده. مد يده وشعر بشيء، ثم شيئين، ثم ثلاثة أشياء ثقيلة، باردة ومبتلة، تسقط في كفه الممتد.

قالت "لولو": "هذا كل.. كل ما وجدته. أنا.. آسفة.."

سألها: "هل يمكنني النظر؟"

- "ليس بعد. دعني.. أغادر.. أولاً.."

لف أصابعه حول الهدايا التي منحتها له، محاولاً معرفة ماهيتها من ملمسها. ما هي؟ قطع من الحجارة الباردة؟ لا، فهي منحوتة. شعر بالتجوفات واحدة منها، هي رأس أو ما شابه. والآن بالطبع عرف ما هي.. ثلاث ناجين من سفينته، أخرجوا من قاع البحيرة.

لم ترحه الإجابة، على النقيض. ارتجف وهو يربط بين لمعان "الولو" الفضي وما يحمله في يده. لقد سبحت إلي قاع البحيرة لتستعيد هذه الأشياء، نزلت لأعماق تتجاوز قدرة أهل الأرض.

لا عجب أنها تراجعت إلى الظلال، وامرته ألا ينظر إليها. لم تعد بشرية. إنها تتحول، أو تحولت، إلى شقيقة للسمك الغريب الذي يدور في المياه المظلمة، باردة الدماء وفضية اللون.

قال: "الولو.. كيف حدث هذا؟"

غمغمت: "لا تضيع وقتك هنا.. اخرج بينما الفرصة سانحة".

قال: "أريد مُساعدتِك".

جاءه الرد قاطعًا: "لا تستطيع.. لا تستطيع مساعدتي.. أنا هنا منذ فترة طويلة.. حياتي انتهت.."

قال "هارفي": "هذا ليس صحيحًا. نحن في نفس العمر".

قالت وصوتها يخبو:

- "لكنني هنا منذ فترة طويلة، حتى إنني لا أذكر ...."

- "لا تذكرين ماذا؟"

قالت: "ربما لا أريد التذكُّر. الألم بالغ.." تنهدت تنهيدة طويلة مختنقة وأكملت: "عليك بالفرار.." ثم قالت بصوت هامس: "اهرب حينما تستطيع".

"لستُ خائفًا".

قالت: "إذن فأنت أحمق؛ لأن عليك أن تخاف".

سمع الدغل يهتز وهي تتراجع مبتعدة.

قال: "انتظري". لم تجبه.. "الولو!"

كان صوت مغادرتها أعلى. ولحظة أن كادت تخرج عن نطاق بصره، خلف وعده، وفتح عينيه، ولمحها وهي تهرب.. ظل بين الظلال، ليس أكثر من هذا. شرع بالمضي خلفها، وهو لا يعرف ما سيقوله أو يفعله عندما يلحق بها، لكنه يعرف أنه لن يسامح نفسه إن لم يساعدها.

ربما إذا أقنعها بالعودة معه، بعيدًا عن ظلال البيت، فقد ينفك سحره الشرير. أو ربما يجد طبيبًا في العالم الخارجي يمكنه علاجها من مصابها. أي شيء بدلاً من تركها تعود إلى البحيرة.

لاح له ماء البحيرة، وهوي لمع في الظلام بين أغصان أشجار الدغل. وصلت "الولو" إلى الضفة، وللحظة حط عليها ضوء النجوم الضعيف. وكان كل ما خشاه "هارفي" صحيحًا، وأكثر. نمت لها زعنفة من ظهرها المحني الممتلئ بالقشور، وكادت ساقاها تلتصقان معًا. وأصبح ذراعاها قصيرين وقويين، ونمت بين أصابعها الأغشية الجلدية.

لكن وجهها، الذي رآه عندما التفتت لتنظر إليه، وجهها هو الذي منحه أكبر صدمة.

سقط عنها شعرها، واختفى أنفها. فقد فمها الشفاة وتحولت عيناها الزرقاوان إلى اللون الفضي، بلا جفون أو أهداب. لكنّ رغم غرابة شكلها كان في عينيها شيء آدمي، على الفم كان هناك حزن رهيب عرف أنه لن يبرح قلبه ولو عاش ألف عام.

قالت وهي تترنح على الحافة: "لقد كنتَ صديقي.. شكرًا لك على هذا!".

ثم سقطت في الماء.

مضى إلى حافة البحيرة مندفعًا، لكن حين وصل إلى المكان الذي غطست منه كانت قد اختفت وحل محلها الفقاقيع. راقب المياه المثلجة لدقيقة أو أكثر، متمنيًا أن تراه وتصعد، لكنها رحلت ولن يتبعها، وهذه هي النهاية على ما يبدو.

ممسكًا بهداياها وكأنها تعاويذ، سار بتثاقل مبتعدًا عن البحيرة وإلى الممشى العشبي حيث ملتقاه مع "ويندل".

* * *

13- الجزء الرابع من الظلام

"ماذا حدث لك؟" هكذا همس "ويندل" عندما وصل إليه "هارفي" عند مهبط الممشى المنحدر.. "حسبت أننا سنتقابل عند منتصف الليل".

قال "هارفي": "هناك.. هناك من قطع عليّ الطريق".

قصد إخبار "ويندل" بما حدث منذ لحظات، لكن صديقه كان متوترًا بما يكفي ولا يحتاج لسماع مصير "الولو". وضع "هارفي" الناجين الثلاثة لسفينته في جيبه وصمم على الكلام عن اللقاء الذي جرى عندما يصبح هو و"ويندل" في أمان بعيدًا عن هذا المكان الرهيب.

شيء واحد فقط يفصلهما عن مقصدهما.. جدار الضباب. الآن، وكما هو دائمًا، بدا بريئًا. لكن هذا وهم بالطبع، مثل كل الأشياء في مملكة السيد "هود".

قال "هارفي" لـ"ويندل": "علينا أن نكون منظمين للغاية.. حالما ندخل إلى الجدار نفقد الإحساس باتجاهنا. لذا علينا ضمان السير في خط مستقيم، ولا ندع الضباب يحول اتجاهنا".

قال "ويندل": "وكيف سنفعل هذا؟"

- "أعتقد أن على أحدنا أن يدخل أولاً، ويمسك الآخر بيده".

قال "ويندل" متلهفًا: "أنا.. أريد الدخول أولاً".

- "لا مشكلة. إذن سأعطي ظهري للبيت، وأدلك. من يعرف، ربما الجدار رفيع بحيث يمكنك جذبي إلى الخارج معك".

قال "ويندل": "النأمل هذا".

سأله "هارفي" وهو يمد إليه يده: "هل أنت مستعد؟"

أخذ "ويندل" يده وقال: "حين تستعد أنت".

- "إذن دعنا نخرج من هنا".

أومأ "ويندل" برأسه، وخطى إلى الضباب. شعر "هارفي" على الفور بقبضته تشتد على يده.

قال "ويندل" وصوته بعيد للغاية رغم أنه على قيد خطوة واحدة: "لا.. تدعني.."

قال "هارفي": "امض في طريقك فقط.. أي علامة لـ.."

قبل أن ينهي سؤاله سمع جلبة من البيت خلفه فأطبق شفتيه. نظر خلفه ليجد الباب الأمامي يُفتح، ونور يضيء في الداخل، ملقيًا بظلال على من خرج يعدو على درجات الشرفة الأمامية. كانت السيدة "جريفين".

لكن الجلبة التي سمعها لم تكن صادرة من شفتيها. لا شيء آدمي قادر على إصدار مثل هذا الصوت. رأى السيدة "جريفين" تنظر إلى سطح البيت وهي تهرول على الممشى، وهو يتبع نظرتها رأى صاحب الصوت يرتقي وخلفه النجوم.

عرف اسمه، لكنه لم يتمكن من رؤية وجهه. لدى "هود" أربعة خدم، وقابل منهم ثلاثة: "ريكتوس" و"جليف" و"مار". وها هو الرابع. "قارنا".. سارق الأرواح، "قارنا".. الملتهم، "قارنا".. الوحش الذي تمنت السيدة "جريفين" ألا يقابله "هارفي" أبدًا.

صاحت السيدة "جريفين" وصوت الأجنحة الهائلة يملأ الهواء: "عد إلى البيت يا طفلي! بسرعة! بسرعة!"

جذب "هارفي" ذراع "ويندل" وصاح فيه وهو يجذبه، لكن "ويندل" شم رائحة الحرية في أنفه، وعقد العزم على ألا يستسلم. صاحت السيدة "جريفين": "ماذا تنتظر؟ عد إلى هنا وإلا سيقطع رأسك!"

اختلس "هارفي" نظرة إلى الوحش المحلش وعرف أنها لا تكذب.

كان فكي "قارنا" كبيرين بما يكفي ليقطعاه إلى نصفين في قضمة واحدة. لكنه لم يقدر على ترك "ويندل" في الضباب. فقد بدءا هذه المغامرة معًا، وهكذا ستنتهي.. حيًا أو ميتًا. لم يعد أمامه خيار سوى أن يدخل إلى الضباب، ويتمنى أن يرى "ويندل" العالم الخارجي، ويتمكن من جذبه معه إلى الشارع.

وهو يتخذ تلك الخطوة، سمع السيدة "جريفين" تقول شيئًا عن قيادة الطريق، ثم أعماه الضباب، وتحول صوتها إلى همسة مشوشة.

لكن صرخات "قارنا" لم تكن مشوشة. فقد اخترقت حجب الضباب، وشوهت أفكار "هارفي" مثلما قد تشوه أسنانه رأسه لو أمسكه الوحش.

صاح "هارفي": "ويندل! إنه آت خلفنا!"

رأى شيئًا ما أمامه، ثم رأى وجه "ويندل"، الذي لطخه الضباب، الذي التفت ليقول: "ليس هناك مخرج!"

- "لابد من وجود مخرج!"

قال "ويندل": "لا يمكنني أن أجده!" وغاب صوته وسط صرخات "قارنا".

اختلس "هارفي" نظرة إلى حيث جاءا، وهو أكثر خوفا من عدم معرفة مدى قرب المخلوق منهما من رؤيته، مهما بلغت رؤيته من إثارة الفزع. سرت أمام عينيه سحابة من الضباب، لكنه لمح هيئة "قارنا" الوحش يهبط. كان أكثر الأربعة توحشًا.. جلده متعفن وممتد على عظام مجروحة ومصقولة، وحلقه عشًا للألسنة الثعبانية، وفكّاه عامرين بمئات الأسنان.

هذه هي النهاية.. هكذا قال "هارفي" لنفسه.. عشت عشرة أعوام وخمسة أشهر فقط وها هو رأسي سيقطع.

ثم ومن طرف عينه، رأى مشهدًا غريبًا.. ذراعا السيدة "جريفين" يمتدا إلى الضباب ويسقطا القط الأزرق على الأرض.

سمعها "هارفي" تقول: "لديه إحساس جيد بالاتجاهات! اتبعاه! اتبعاه!"

لم يكن بحاجة إلى دعوة ثانية، ولا القط الأزرق. وذيله مرفوع مضى في طريقه، وأمسك "هارفي" بذراع "ويندل" وتبعه. كان القط سريعًا، وكذا "هارفي". أبقى عينيه ملصقة بالذيل اللامع، حتى مع خفقان الأجنحة من خلفه معلنًا دخول "قارنا" إلى الضباب وأنه فوق رأسه.

خطوتان، ثلاث خطوات، أربع خطوات. ثم بدأ الضباب يتلاشى. سمع "هارفي" يصيح بفرح: الشارع!.. إنني أراه!" ثم وفي اللحظة التالية رآه "هارفي" هو الآخر، ورأى الرصيف مبتلاً بالأمطار ويلمع تحت ضوء المصابيح. والآن جرؤ على النظر خلفه، وها هو "قارنا"، وفكيه على مسافة ياردة واحدة منهما.

ترك ذراع "ويندل" ودفع صديقه إلى الشارع، وانحنى وهو يفعل هذا. جرح فك "قارنا" السفلي ظهره، لكن الوحش كان يتحرك بسرعة لم يقدر معها

على التحكم في نفسه، وبدلاً من الاستدارة والعودة طار لأعلى، وإلى العالم الحقيقي.

كان "ويندل" فيه، وانضم إليه "هارفي" بعد لحظة.

صاح "ويندل: "لقد نجحنا! نجحنا!"

قال "هارفي" مشيرًا إلى الوحش وهو ينهض وخلفه السماء المليئة بالسحب ويدور على عقبيه عائدًا إليهما:

- "وكذلك قارنا!"

قال "هارفي": "إنه يريد أن يعيدنا للداخل!"

صرخ "ويندل": "لن أعود! أبدًا! لن أعود هنا ثانية!"

سمع "قارنا" كلامه. وثبتّ عليه عينيه المستعرتين، ثم نزل كلسان البرق، وصيحته يتردد صداها في الشوارع الليلية.

قال "هارفي": "اجر!"

لكن "قارنا" ثبتّ "ويندل" مكانه. أمسك "هارفي" به وكان على وشك الجري هاربًا عندما سمع صرخة الوحش تتغير. صار النصر شكًا، لكن الشك تحول إلى ألم، وفجأة ترنح "قارنا" وسقط، وظهرت فتحات في جناحيه كأن قطيع من العثة الخفية تأكلهما.

جاهد للارتقاء في الهواء ثانية، لكن جناحيه المجروحان رفضا أداء واجبهما، وبعد لحظات ضرب الشارع بقوة ليقضم عشرة من أسنته، وتناثرت خمسون سنة من أسنانه عند قدمي الولدين. لكن السقطة لم تقتله. رغم أن

الجراح آلمته، إلا أنه رفع نفسه على بقايا أجنحته وبدأ يجر نفسه إلى الجدار ثانية. حتى الآن، وفي حالته المزرية، كان قويًا، وضرباته ذات اليمين وذات اليسار أبعدت "هارفي" و"ويندل" عن مساره.

قال "ويندل": "إنه لا يقدر على البقاء هنا.. إنه يحتضر".

تمنى "هارفي" لو كان معه سلاحًا ليمنع الوحش من العودة إلى الأمان، لكن عليه بالرضاء بمشهد هزيمته. إن لم يكن راغبًا بقوة في لحمهما ما كان ليخرج خلفهما بهذه السرعة ويجلب على نفسه الألم والمهانة. هكذا قال "هارفي" لنفسه. ثمة درس هنا.. الشر مهما بدا قويًا، فيمكن هزيمته بسبب شراهته وطمعه.

ثم رحل المخلوق، والتف حوله ستار من الضباب بعد أن تراجع.

لم يبق من العجائب المستقرة على الجانب الآخر من الجدار سوى مشهد واحد.. وجه القط الأزرق، الذي ظل محدقًا في العالم الذي لا يمكنه، مثله مثل باقي سكان البيت العطلة، أن يستكشفوه. قابلت نظرته عين "هارفي" للحظة، ثم نظر خلفه إلى سجنه، وكأنه يسمع استدعاء السيدة "جريفين"، وبتنهيدة متألمة دار على عقبيه ومضى في طريقه.

قال "ويندل" وهو يحدق في الشوارع الممطرة: "أمر غريب.. كأنني لم أغادر قط".

قال "هارفي": "حقًا؟ لم يكن واثقًا. أحسُ إحساسًا مختلفًا.. تطوه مغامرته الأخيرة.

ـ "أتساءل إن كنا سننسى بإقامتنا هنا بعد أسبوع من الآن".

قال "هارفي": "آه.. تذكرت.. لدي بعض التذكارات".

أدخل يده في جيبه بحثًا عن الأشياء المستعادة من السفينة. حتى وهو يجذبها أحس بها تتحطم، والعالم الحقيقي يلقي ببصمته عليها.

غمغم وهي تتحول إلى تراب وتجري من بين أصابعه: "أوهام.."

قال "ويندل": "ومن يهتم. حان وقت العودة إلى البيت. وهذا ليس وهمًا".

* * *

14 - الوقت كان

استغرق الولدان ساعة ليصلا إلى مركز البلدة، وهناك ولأن بيتيهما يقعان في أماكن مختلفة، فقد اضطرا للافتراق. تبادلا العناوين قبل أن يفعلا، ووعد أحدهما الآخر باللقاء خلال يوم أو اثنين؛ حتى يدعم كل منهما حكاية الآخر بشأن بيت العطلة. سيكون من الصعب أن يصدق الناس ما جرى لهما، ولعل الفرصة ستتحسن لو حكى صوتان الحكاية بدلاً من صوت واحد.

قال "ويندل" قبل أن يفترقا: "أعرف ما فعلته ونحن هناك.. لقد أنقذت حياتي".

قال "هارفي": "كنت لتفعل الشيء نفسه معي".

قال "ويندل" بريبة: "كنت لأود هذا.. لكنني لم أكن شجاعًا قط".

قال "هارفي": "لقد هربنا معًا.. ما كنت لأنجح بدونك".

- "حقًا؟"

- "حقًا".

أشرق وجه "ويندل" مع كلمته هذه وقال: "أجل.. أعتقد أنك محق. حسن.. أراك قريبًا". وهكذا افترقا ومضى كلٌ في طريقه.

كان ما زال على النهار ساعات، والشوارع شبه خالية، لذا فقد كانت مسيرة "هارفي" إلى البيت طويلة وشاقة. كان متعبًا وحزينًا بعض الشيء على فراقه "ويندل"، لكن فكرة الترحاب الذي سيجده لدى الوصول إلى مدخل بيته زادت من قوة قدميه.

تساءل مرات عديدة إن كان قد ضل طريقه؛ لأن الشوارع التي مر بها بدت له غير مألوفة. كان أحد الأحياء فخمًا يبدو عليه الثراء، ببيوت وسيارات أفخم مما رأى في حياته، وحي آخر أشبه بالأرض الخراب، بيوته نصفها ركام، وشوارعه مليئة بالقمامة. لكن إحساسه بالاتجاهات خدمه على أكمل وجه. مع بدء شحوب الأفق ناحية الشرق، وزقزقة العصافير على الأشجار، دار حول منعطف شارعه. هرولت قدماه في سرور، وجلبته إلى باب البيت لاهثًا مستعدًا للسقوط بين ذراعي والديه.

طرق الباب.. لم يصدر صوتًا من البيت في البداية، وهو ما لم يدهشه في هذه الساعة. طرق ثانية، وثالثة. وأخيرًا أضاء نور بالداخل وسمع شخص ما يقترب من الباب. قال أباه من خلف الباب الموصد: "من هذا؟ هل تعرف ما الساعة؟"

قال "هارفي": "هذا أنا".

ثم جاءه صوت مصراع الباب وهو يفتح، ثم انفتح الباب قليلاً.

قال الرجل المحدق فيه من خلف الباب: "من (أنا)؟"

قال "هارفي" لنفسه إنه يبدو طيبًا، لكنه ليس والده. كان هذا رجلاً أكبر سنًا بكثير، ومعظم شعره أبيض، ووجهه رفيع. كان شاربه مشذبًا بإهمال، وجبينه مقطب ومتغضن.

قال: "ماذا تريد؟"

قبل أن يتمكن "هارفي" من الرد جاءه صوت امرأة:

- "ادخل بعيدًا عن الباب".

لم يتمكن من رؤية المتكلمة الثانية بعد، لكنه لمح ورق الحائط في المدخل، والصور المعلقة على الحائط. رأى أنه ليس بيته على الإطلاق. لابد أنه قام بخطأ بسيط، وطرق الباب الخطأ.

قال وهو يتراجع: "أنا آسف.. لم أقصد أن أوقظكما".

تساءل الرجل: "عمن تبحث؟" وهو يفتح الباب قليلاً. "هل أنت أحد أطفال آل سميث؟"

بدأ يعبث بجيب منامته وأخرج نظارة.قال "هارفي" لنفسه: إنه لا يكاد يراني، ذلك الرجل العجوز المسكين.

لكن قبل أن تصل النظارة إلى أنف الرجل ظهرت زوجته من خلفه، وكادت ساقي "هارفي" تخذلانه لدى رؤيتها.

كانت عجوز، وشعرها بلا لون كزوجها، ووجهها متغضن ومليء بالحزن. لكن "هارفي" يعرف ذلك الوجه أكثر من أي وجه آخر. كان أول وجه يحبه. كان وجه أمه.

غمغم: "أمي؟"

تجمدت المرأة وحدقت عبر الباب المفتوح في الولد الواقف عند المدخل، وعيناها مليئة بالدموع. وكادت لا تقدر على التنفس وهي تنطق الكلمة التالية:

- "هارفي؟"

- "أمي؟ أمي، هل هذه أنت؟ ألست أنت؟"

كان الرجل قد وضع النظارة على أنفه، ونظر عبرها إليه بعيون واسعة.

قال ببساطة: "هذا مستحيل. لا يمكن أن يكون هذا هارفي".

قالت الزوجة: "إنه هو. إنها هارفي ابننا. لقد عاد إلى البيت".

هز الرجل رأسه وقال: "بعد كل هذه السنوات؟ كان ليصبح رجلاً. رجلاً ناضجًا. هذا مجرد ولد".

- "إنه هو.. لقد تعرفت عليه".

رد الرجل وقد أصبح غاضبًا: "لا! إنه مخادع. شخص ما يحاول خداعنا وإيلام قلبينا. وكأنها لم تتحطم بما فيه الكفاية".

شرع في إغلاق الباب، لكن أم "هارفي" أمسكته.

قالت: "انظر إليه. انظر إلى ملابسه. إنها ما كان يرتديه يوم غادرنا".

"وكيف تعرفين؟"

"هل تعتقد أنني لا أذكر؟"

قال والد "هارفي" وهو ما زال يحدق في الولد الواقف في المدخل: "مر واحد وثلاثون عامًا. لا يمكن.. لا يمكن.." ثم انخفض صوته وقد بدا على وجهه أنه تعرف عليه: "يا ربي".. ثم تراجع صوته إلى همسة.. "إنه هو، أليس كذلك؟"

أجابته زوجته: "هكذا أخبرتك".

سأل "هارفي": "هل أنت شبح؟"

قالت أم "هارفي": "بحق الله. إنه ليس شبحًا!" ثم مرقت إلى جوار زوجها وخرجت إلى المدخل وأضافت: "لا أعرف كيف حدث هذا، ولا أهتم" ثم فتحت ذراعيها لـ"هارفي" وقالت: "كل ما أعرفه هو أن ولدنا الصغير عاد إلى البيت".

لم يقدر "هارفي" على الكلام. كانت الدموع تخنق حلقه، وأنفه، وعينيه. كل ما قدر عليه هو أن يتعثر ساقطًا بين ذراعي أمه. إحساس رائع أن تمرر يديها على شعره وتمسح أصابعها وجنتيه.

قالت باكية: "آه يا هارفي، هارفي، هارفي.. حسبنا أننا لن نراك ثانية". أخذت تقبله قائلة: "حسبناك رحلت للأبد".

قال أباه وهو ما زال راغبًا في المعرفة: "لكن كيف هذا؟!"

قالت أمه: "داومت على الدعاء".

كان لدى "هارفي" إجابة أخرى، لكنه لم ينطقها. لحظة رؤيته لأمه التي تغيرت كثيرًا وأصبحت حزينة تبين له الدور البشع الذي لعبه بيت "هود" عليهم جميعًا. مقابل كل يوم قضاه هناك مر عام في العالم الحقيقي. كل صباح لعبه في دفء الربيع مرت مقابله شهور. وفي فترة بعد الظهر، بينما يرقد بكسل في شمس الصيف يحدث نفس الشيء. وفي فترة الغروب القصيرة تمر شهور، وفي ليالي الكريسماس الملينة بالثلج والهدايا. مرت كلها بسهولة، ورغم أنه لم يكبر سوى شهر واحد، فقد عاش أبوه وأمه في حزن لمدة واحد وثلاثين عامًا، وهما يفكران في ابنهما الصغير الذي ضاع للأبد.

هذا هو ما حدث تقريبًا. لو بقى في بيت الأوهام وشغلته متعه المزيفة، كانت لتمر حياة كاملة في العالم الحقيقي وتصبح روحه ملكًا لـ"هود". كان لينضم للسمك في البحيرة، ويدور ويدور معه. ارتجف للفكرة.

قالت أمه: "أنت تشعر بالبرد يا حبيبي. تعال إلى الداخل". مسح دموعه بظهر يده وقال: "أنا متعب للغاية".

- "سأجهز السرير على الفور".

قال "هارفي": "لا. أريد أن أخبركما بما جرى قبل أن أنام. إنها قصة طويلة. قصة تبلغ من الطول واحد وثلاثين عامًا".

* * *

15- كوابيس جديدة

كانت الحكاية أصعب مما توقع. رغم أن بعض التفاصيل كانت حية في ذاكرته، مثل ظهور "ريكتوس" لأول مرة، وغرق السفينة، وهروبه هو و"ويندل"، فإن أشياء كثيرة أخرى لم يتذكرها. وكأن الضباب الذي تسلل عبره وصل إلى رأسه، ورفع حجاب على البيت وكثير مما يحتويه.

قال: "أذكر الكلام معك على الهاتف مرتين أو ثلاث مرات".

أجابته أمه: "لم تكلمنا يا حبيبي".

قال "هارفي": "إذن لابد أنها خدعة أخرى. كان يجب أن أعرف".

سأله أبوه: "لكن من أدى كل هذه الخدع؟ لو كان البيت موجودًا. أعني.. إذًا.. إذن فمن يملكه اختطفك وتمكن بطريقة ما من منعك من أن تكبر. ربما جمدك.."

قال "هارفي": "لا. كان الجو دافئًا هناك، فيما عدا حين يهبط الثلج بالطبع".

- "لابد من وجود تفسير منطقي ما".

قال "هارفي": "إنه موجود.. كان هذا سحرًا".

هز والده رأسه وقال: "هذه إجابة طفولية.. وأنا لم أعد طفلاً".

قال "هارفي" بتصميم: "وأنا متيقن مما أعرفه".

قال أمه: "ما تعرفه ليس بالكثير يا حبيبي".

- "أتمنى لو أقدر على تذكر المزيد".

وضعت ذراعها حول كتفه وقالت: "لا عليك.. سنتكلم في هذا الموضوع بعد أن ترتاح".

سأله والده ثانية: "هل يمكنك العثور على ذلك البيت ثانية؟"

أجابه "هارفي": "أجل".

وإن كان جلده قد ارتجف عند ذكره ثانية.. "أعتقد هذا".

"إذن فهذا ما سنفعله".

قالت أمه: "لا أريده أن يذهب إلى ذلك المكان ثانية".

"يجب أن نتيقن من وجوده قبل إبلاغ الشرطة. أنت تفهم هذا، أليس كذلك يا بني؟"

أومأ "هارفي" برأسه وقال: "يبدو هذا كأنه حكاية اختلقتها، أعرف هذا. لكنه ليس كذلك. أقسم إنه ليس كذلك".

قالت أمه: "تعال يا حبيبي.. أخشى أن حجرتك قد تغيرت قليلاً، لكنها ما زالت مريحة. نظفتها من أجلك لسنوات وسنوات، متمنية أن تجد طريقك إلى البيت. ثم أدركت أنك لو عدت فسوف تصبح رجلاً يافعًا، ولن ترغب فيها مزينة بالسفن الفضائية والببغاوات. لذا غيرنا ديكورها. لقد أصبحت مختلفة تمامًا".

قال "هارفي": "لا يهمني. إنه بيتي، وهذا هو ما يهم".

* * *

في الصباح الباكر، وهو نائم في حجرته القديمة، أمطرت السماء مطرًا ثقيلاً من الذي يهطل في شهر مارس.. ضرب النافذة وإطارها الخارجي. أيقظه الصوت.. نهض على السرير وشعر مؤخرة رأسه منتصب من الخوف، وعرف أنه كان يحلم بـ"الولو". "الولو" المسكينة الضائعة، وهي تجر جسدها المشوه عبر الشجيرات، ويدها الزعنفية ممسكة بحيوانات السفينة التي أخرجتها من الطين.

كانت فكرة تعاستها غير محتملة.

كيف يمكنه أن يأمل في أن يعيش في العالم الذي عاد إليه وهو يعرف أنها ما زالت سجينة "هود"؟

قال لنفسه بصوت خفيض: "سوف أجدك. سأفعل.. أقسم على هذا.."

ثم عاود الرقاد على الوسادة الباردة، وأنصت إلى الأمطار حتى زحف النوم عليه ثانية.

مع تعبه من رحلته وإصاباته، فلم يستيقظ ثانية قبل الصباح. كان المطر قد توقف، وحان وقت إعداد الخطط.

قال والده: "لقد اشتريت خريطة كاملة لميلساب". ثم فرد خريطته على مائدة المطبخ وقال: "ها هو بيتها" كان قد علم المكان بالقلم على الخريطة.. "والآن، هل تتذكر أي من الشوارع حول بيت هود؟"

هز "هارفي" رأسه نفيًا وقال: "كنت مشغولاً بالهروب".

"هل كانت هناك مبانٍ معينة رأيتها؟"

"كان الوقت ظلامًا والسماء تمطر".

"إذن فعلينا الثقة بحظنا فقط".

قال "هارفي": "سنجده.. حتى ولو قضينا طوال الأسبوع نبحث عنه".

كانت المسألة أصعب مما قال. مرت أكثر من ثلاثة عقود منذ سار في طريقه عبر البلدة مع "ريكتوس" لأول مرة، وتغيرت أشياء بلا حصر منذ حينها. كانت هناك قصور جديدة وأزقة جديدة، وسيارات جديدة في الشوارع وطائرات في السماء. أشياء كثيرة مسببة للتشتيت، وتمكنت كلها من إبعاد "هارفي" عن المسار الصحيح.

اعترف بعد أن بحثا لمدة نصف يوم قائلاً: "لا أعرف أي طريق يؤدي إلى أين.. لا شيء ما زال على حاله كما أذكره".

قال أبوه: "سنستمر في البحث. سنصل إلى مقصدنا".

لكن هذا لم يحدث. قضيا باقي اليوم وهما يتجولان، متمنيان أن يطلق الليل الذكرى، لكنهما أصيبا بالإحباط. بين الحين والآخر عند ميدان أو شارع ما يقول "هارفي": "لعله هذا المكان". ثم يتجه إلى اتجاه أو آخر، ثم يجد أن المسار غير صحيح على بعد عدة مبان.

وفي تلك الأمسية سأله أبوه ثانية.

قال: "إذا كنت لا تذكر غير شكل البيت، فيمكنني وصفه للناس".

- "كان كبيرًا. أذكر هذا. وقديمًا. أنا واثق من أنه قديم".

- "هل يمكنك أن ترسمه؟"

- "يمكن أن أحاول".

فعل هذا، ورغم أنه لم يكن رسامًا ماهرًا فقد اتضح أن يده تذكر المكان أفضل من عقله؛ لأن بعد نصف ساعة رسم البيت بتفاصيل معقولة. وسر والده لهذا.

قال: "سنأخذ هذا معنا غدًا. ربما يتعرف عليه أحد".

لكن الغد كان محبطًا مثل اليوم. ولم يتعرف أحد على البيت الذي رسمه "هارفي"، ولا أي شيء منه أو شبيه به. ومع نهاية فترة الأصيل أصبح مزاج والد "هارفي" مضطربًا.

قال: "لا فائدة! لابد أنني سألت خمسمائة شخص ولا واحد منهم يعرف أو يذكر المكان ولو من بعيد".

قال "هارفي": "لم يفاجئني هذا.. فلا أعتقد أن أي شخص رأى البيت بخلافي أنا وويندل وهرب منه من قبل".

قالت أمه: "علينا أن نذكر كل هذا للشرطة، وندعها تتعامل مع الموضوع".

قال أبوه: "وبم سنخبرها؟ أننا نعتقد أن البيت في مكان ما مختبئ في الضباب، وأنه يسرق الأطفال بالاستعانة بالسحر؟ هذا سخف!"

قالت أم "هارفي": "اهدأ، اهدأ. سنتكلم في هذا الموضوع بعد أن نأكل".

ساروا إلى البيت، وأكلوا وناقشوا المشكلة كلها ثانية، لكن دون الوصول إلى حلول. لقد وضع السيد "هود" أفخاخه بحرص على مدى الأعوام، بحيث

يحمي نفسه من قوانين العالم الحقيقي. في أمان خلف ضباب أوهامه.. ولعله وجد بالفعل سجينين غافلين آخرين ليستبدل بهما "هارفي" و"ويندل". بدا أن شره مستمر، غير مكتشف وبلا عقاب.

في اليوم التالي تقدم والد "هارفي" بإعلان.

قال: "هذا البحث لن يصل بنا إلى شيء. سنتخلى عنه!"

سألته زوجته: "هل ستذهب إلى الشرطة؟"

- "أجل. وسيريدوا من هارفي أن يخبرهم بكل ما يعرفه. سيكون الأمر صعبًا".

قال "هارفي": "لن يصدقوني".

قال أبوه: "لهذا السبب سأتكلم معهم أولاً. سأجد شخصًا ما ينصت لي".

ثم غادر البيت بعد الإفطار، وعلى وجهه تعبير مضطرب قلق.

قال "هارفي" لأمه: "هذا كله خطأي.. فقدنا كل هذا الوقت؛ لأنني كنت أشعر بالملل".

قالت: "لا تلم نفسك. كلنا تغرينا الأشياء ثم نندم عليها. أحيانًا نختار اختيارًا يترتب عليه الخطأ".

أجابها "هارفي": "أتمنى فقط لو أعرف كيف ألغي ما جرى".

خرجت أمه تتسوق في منتصف الصباح، وتركت "هارفي" خلفها تسكنه الأفكار. هل من طريق لإلغاء الضرر الذي وقع؟ أن يرجع السنوات المسروقة ويعيشها هنا، مع الناس الذين يحبونه والذين يبادلهم الحب بدوره؟

كان جالسًا عند نافذة حجرة نومه متحيرًا في المشكلة، عندما رأى شخصًا عند منعطف الطريق. فتح النافذة وصاح إليه: "ويندل! ويندل! هنا!"

جرى إلى الأسفل. ومع فتحه للباب كان صديقه عند المدخل، وجهه أحمر ومحتقن بالدموع والعرق.

قال: "ماذا جرى؟ تغير كل شيء". تخلل كلماته الفواق.. "طلق أبي أمي، وأصبحت أمي عجوزًا بدينة كالبيت يا هارفي". مسح أنفه بظهر يده وقال: "لم يكن من المفترض أن تجري الأمور هكذا. أليس كذلك؟"

ذكر "هارفي" ما يقدر عليه ليشرح له كيف خدعهما البيت، لكن "ويندل" لم يكن في حالة مزاجية تسمح له بفهم النظريات. أراد فقط انتهاء الكابوس.

قال باكيًا: "أريد أن تعود الأمور إلى مجراها السابق".

قال "هارفي": "ذهب أبي إلى الشرطة.. سيخبرهم بكل شيء".

قال "ويندل" بيأس: "لن يجدي هذا نفعًا. لن يجدوا البيت أبدًا".

قال "هارفي": "أنت محق. ذهبت لأبحث عنه مع أمي وأبي، لكن بلا فائدة. إنه مختبئ".

قال "ويندل": "طبيعي أن يختفي عن أعينهما يا أحمق، فهو لا يريد الكبار".

قال "هارفي": "أنت محق. إنه يريد الأطفال. وأراهن على أنه يريدك ويريدني أكثر من أي وقت".

-"هل تعتقد هذا؟"

- "كاد ينال منا. وكاد يأكلنا أحياء".

- "إذن هل تعتقد أنه تذوقنا؟"

- "أنا واثق من هذا".

حدق "ويندل" في قدمه لدقيقة وقال: "أنت ترى أن علينا العودة, أليس كذلك؟"

- "لا أعتقد أن أي من الكبار، أبي أو أمي أو الشرطة، يمكنهم العثور على البيت. إذا أردنا استعادة كل هذه السنوات، فعلينا العودة بأنفسنا".

اعترف "ويندل": "لا تعجبني الفكرة كثيرًا".

قال مفكرًا في أن عليه أن يترك ورقة يشرح فيها الأمر لأمه وأبيه؛ حتى لا يعتقدا أن عودته إلى البيت كانت حلمًا: "ولا أنا.. علينا الذهاب. ليس أمامنا خيار".

- "إذن متى نبدأ؟"

قال "هارفي" بتجهم: "الآن! لقد ضيعنا وقتًا كثيرًا بالفعل".

* * *

16- العودة إلى الأرض السعيدة

وكان البيت يعرف أنهما سيعودا، وكان ينادي عليهما. حالما خطيا بعيدًا عن الشارع بدا كأن قدميهما تعرف الطريق. كل ما عليهما أن يفعلاه هو أن يتركاتها تقودهما. قال "ويندل" مستفسرًا: "ماذا نفعل حين نصل إلى هناك؟ أعني أننا هربنا بالكاد في المرة الأخيرة.."

قال "هارفي": "سوف تساعدنا السيدة جريفين".

تسارع تنفس "ويندل" وهو يقول: "لنفترض أن قارنا عض رأسها وقطعه؟"

- "إذن سنفعلها وحدنا".

- "نفعل ماذا؟"

- "نجد هود".

- "لكنك قلت لي إنه ميت".

قال "هارفي": "لا أعتقد أن الموت يعني الكثير لمخلوق مثله. إنه في مكان ما داخل البيت يا ويندل، وعلينا أن نصطاده سواء أردنا أو لم نرد. إنه الذي سرق كل هذه السنوات من حياتنا مع والدينا. ولن نعود إليهم حتى نواجهه".

قال "ويندل": "تجعل الأمر يبدو سهلاً؟"

- "البيت كله عبارة عن صندوق من الخدع..الفصول، والهدايا، كلها أوهام. علينا التمسك بهذه الفكرة".

- "هارفي؟ انظر".

أشار "ويندل" إلى نقطة أمامهما. تعرف "هارفي" الشارع فورًا. منذ واحد وثلاثين يومًا وقف هنا مع "ريكتوس" وأنصت لغاويه وهو يخبره عن روعة المكان الواقع على الجانب الآخر من الجدار الضبابي.قال "هارفي":"حانت ساعة الحسم".

كان أمرًا غريبًا، لكنه لم يشعر بالخوف، حتى رغم معرفته أنهما سيعودا لأحضان عدوهما. كان من الأفضل مواجهة "هود" وأوهامه الآن بدلاً من قضاء ما بقى من حياته متسائلا عمّا جرى لـ"الولو"، والبكاء على السنوات المفقودة.

سأل "ويندل": "هل أنت مستعد؟"

رد عليه صديقه: "قبل أن نمضي، هل يمكننا الاتفاق على شيء؟ إذا كان البيت وهمًا، إذن كيف شعرنا بالبرد؟ وكيف أصبت بالبدانة من أكل فطائر السيدة جريفين، و.."

قاطعه "هارفي" والريبة تجري بإصبع بارد علي عموده الفقري لتصيبه بالقشعريرة: "لا أعرف كيف يعمل سحر هود. كل ما أعرفه هو أنه استولى على كل هذه السنوات ليغذي بها نفسه".

- "يغذي؟"

- "أجل. مثل.. مثل.. مثل مصاص دماء". كانت هذه هي المرة الأولى التي يفكر "هارفي" فيها في "هود" بهذه الطريقة، لكن هذا كان حقًا. الدم هو الحياة، والحياة هي ما يتغذى عليه "هود". إنه مصاص دماء، هذا أكيد. لعله ملك بين مصاصي الدماء.

- "إذن ألا يجب أن يكون معنا عصا أو مياه مقدسة أو أي من هذه الأشياء؟"

قال "هارفي": "هذا في القصص فقط".

- "لكن إذا طاردنا.."

- "نقاتله".

- "بم نقاتل؟"

هز "هارفي" كتفيه.. الحقيقة أنه لا يعرف, لكنه كان على ثقة من أن الصلبان والصلوات لن تجدي نفعًا في المعركة التي تنتظره.

قال لـ"ويندل": "كف عن الكلام. إذا لم تكن تريد أن تأتي فلا تفعل".

- "لم أقل هذا".

قال "هارفي": "جيد". ثم شرع في السير ناحية الضباب.

تقدم "ويندل" في عقبيه، ومع دخول "هارفي" إلى الجدار أمسك بكم صديقه؛ حتى يدخلا كما خرجا: معًا.

التف الضباب حولهما مثل بطانية من المياه، وضغط على وجهيهما بقوة. ظن "هارفي" أنه يقصد طحنهما. لكنه كان فقط يحاول ضمان ألا يغيرا رأيهما. بعد لحظة سرت رعشة في ثنايا الضباب وبصقهما على الجانب الآخر.

كان الوقت منتصف الصيف في مملكة "هود".. ذلك الفصل الكسول. الشمس، التي كانت تخبئها السحب المطيرة على الجانب الآخر من الضباب كانت تطل على البيت وكل ما حوله. تمايلت الأشجار مع النسيم الخفيف، وتألقت أبواب ونوافذ البيت، وشرفته الأمامية ومداخنه، وكأنها مطلية حديثًا.

كانت هناك أغاني للترحيب في ثنايا المنزل البارزة، وروائح مرحبة من المطبخ، ضحك سمعاه عبر الباب المفتوح. ترحيب، كل شيء يوحي بالترحيب.

غمغم "ويندل": "لقد نسيت.."

- "ماذا نسيت؟"

- "كم.. كم هو جميل".

قال "هارفي": "لا تثق به. المسألة كلها وهم، أتذكر؟ كلها".

لم يرد "ويندل"، بل توجه ناحية الأشجار. مرقت النسائم المعسولة من حوله، وكأنها تريد اقتطافه. لم يقاومها، بل مضى معها إلى حيث تأخذه، إلى الظلال المرقطة.

قال "هارفي" وهو يتبعه على الممشى العشبي: "ويندل! علينا بالبقاء معًا".

قال "ويندل" بلهجة حالمة وهو يحدق في ظلال الأشجار: "نسيت بيت الشجرة. استمتعنا بوقتنا كثيرًا هناك. هل تذكر؟"

قال "هارفي" مصممًا على ألا يدع الماضي يشتته عن مهمته: "لا. لا أذكر".

قال "ويندل" مبتسمًا ابتسامة عريضة ممتدة من أذن إلى الأخرى: "بل تفعل. عملنا فيه كثيرًا. سأصعد لأرى كيف يبدو".

أمسك "هارفي" بذراعه.

- "لا، لن تفعل".

رد عليه بحدة وهو يبعد ذراعه عن قبضة "هارفي": "بل سأفعل. يمكنني فعل ما أشاء. أنت لا تملكني".

رأى "هارفي" من نظرة "ويندل" أن البيت بدأ يجري سحره الجذاب عليه. المسألة مسألة وقت فقط، هكذا عرف، قبل أن تتلاشى قوى مقاومته. ثم ماذا بعدها؟ هل سينسى ما جاء من أجله هنا بالكامل، ويصبح ولدًا خاوي العقل، يضحك مثل المجانين وروحه تسرق منه؟

قال بصوت مرتفع: "لا! لن أدعك تفعل هذا!"

قال "ويندل": "أفعل ماذا؟"

قال له "هارفي": "لدينا عمل نؤديه!"

أجابه "ويندل": "ومن يهتم؟"

- "أنا. وكذا كنت أنت منذ خمس دقائق. تذكر ماذا فعل بنا يا ويندل".

بدا كأن الرياح تتنهد بين الأشجار لدى قوله هذا.

- "آآآآه.." هكذا قالت، كأنها فهمت غرض "هارفي" من الحضور، وستنقل هذه المعلومة إلى آذان السيد "هود".

لم يهتم "هارفي". بل سره هذا في الحقيقة.

قال والنسيم يهب ناحية البيت: "هيا. أخبريه! أخبريه!" ثم التفت لـ"ويندل" وقال: "هل ستأتي؟ أم سأذهب وحدي؟"

قال "ويندل" بسرور: "لا أمانع في الذهاب، فأنا جائع".

حدق "هارفي" بقوة في "ويندل" وقال: "ألا تذكر أي مما قلنا بالخارج؟"

أجابه "ويندل": "بالطبع أذكر. قلنا إننا سندخل.." ثم سكت وقطب جبينه ثم أضاف: ".. سندخل.. لـ.. لـ.."

قال "ويندل" وما زال جبينه مقطبًا بعمق: "كيف فعل هذا؟ إنه مجرد.. مجرد.." ثم سكت باحثًا عن الكلمات.. "مجرد يوم رائع". ثم بدأت تقطيبته تنفك، وتحل محلها ابتسامة واسعة. "من يهتم؟" هكذا قال.. "أعني، في يوم كهذا، من يهتم؟ دعنا نستمتع بوقتنا".

هز "هارفي" رأسه. كان يفقد وقتًا ثمينًا، وهو ما أراده "هود" والبيت. بدلاً من تضييع مزيد من الكلمات هباء على "ويندل"، دار على عقبيه وتوجه ناحية الباب الأمامي.

صاح "ويندل": "انتظرني. هل تشم رائحة تلك الفطيرة؟" كان "هارفي" يشمها، وتمنى لو يأكل قليلاً قبل أن يبدأ في هذه المغامرة. ورغم أنه يعرف أن الروائح الجميلة جزء من مخطط "هود" فلم يتمكن من منع لعابه من السيلان، ولا معدته من إصدار أصوات الجوع.

كل ما قدر عليه هو التفكير في التراب الذي تحولت إليه حيوانات سفينته عندما خرج إلى الشارع. الفطيرة المستلقية على مائدة المطبخ من نفس المادة الكريهة على الأرجح، مخفية تحت غشاء من الحلاوة. استمسك بتلك الفكرة قدر استطاعته، وهو يعرف أن البيت الذي سيخطو داخله سيجده مليئًا بالأوهام.

و"ويندل" في عقبيه على مسافة خطوة منه، صعد درجات الشرفة الأمامية وسار إلى البيت. لحظة دخولهما أوصد الباب خلفهما. دار "هارفي" على عقبيه، وأصابت القشعريرة جلده. فلم تكن الرياح هي التي أوصدت الباب.

كان "ريكتوس".

* * *

17- الطباخة والقط والتابوت

قال "ريكتوس" وابتسامته واسعة كما هي دومًا: "تسعدني عودتك يا ولد. قلت للجميع إنك لن تقدر على الفراق. لم يصدقني أحد. لقد رحل، هكذا قالوا، رحل. لكنني عرفت الحقيقة". بدأ يقترب من "هارفي".. "عرفت أنك لن ترضى بزيارة صغيرة.. ليس بعد كل الاستمتاع الذي وجدته".

قال "ويندل" شاكيًا: "إنني جائع".

ابتسم "ريكتوس" وقال: " كُلا!"

انطلق "ويندل" سريعًا إلى المطبخ.

صاح: "هيه.. هيه.. انظر إلى كل هذا الطعام".

لم يرد "هارفي".

قال "ريكتوس" وهو يرفع حاجبه أعلى من نظارته: "ألست جائعًا؟" ثم وضع يده خلف أذنه وأضاف: "إنني أسمع معدة خاوية".

قال "هارفي": "أين السيدة جريفين؟"

قال "ريكتوس" بمكر: "إنها في الجوار. لكنها عجوز. هذه الأيام تلجأ لفراشها كثيرًا؛ لذا أرقدناها في مكان آمن وسالم".

وهو يتكلم سمعا صوت مواء منبعث من حجرة المعيشة، وهناك عند الباب وقفت القطة الشوربية عابسة.

قال "ريكتوس": "اخرجي من هنا يا قطة! ألا ترين أننا نتناقش؟"

لكن القطة الشوربة لم تخضع للتهديد. اتجهت ناحية "هارفي" وحكت جسدها في ساقيه.

قال "هارفي" وهو يثني ركبتيه وينزل إليها ليربت عليها: "ماذا تريدين؟" فهرت بصوت مرتفع.

قال "ريكتوس" وهو يطفئ غضبه مستبدلاً إياه بابتسامة جديدة مصقولة: "أنت تحب هذه القطة. والقطة تحب. والجميع سعداء".

قال "هارفي": "أنا لست سعيدًا".

- "ولم لا؟"

"تركت هداياي هنا، ولا أعرف أين".

قال "ريكتوس": "ليست مشكلة. سأجدها لك".

قال "هارفي": "هل ستفعل هذا؟"

قال "ريكتوس" وقد اقتنع أن سحره يعمل ثانية: "بالطبع يا فتى. هذا ما نحن هنا لأجله؛ لكي نمنحك ما يشتهيه قلبك".

اقترح عليه "هارفي": "أعتقد أنني تركتها في حجرة نومي".

أجابه "ريكتوس": "أتعرف؟ أعتقد أنني رأيتها بالأعلى. ابق هنا. سأعود".

صعد على السلم كل درجتين أو ثلاثة في الخطوة الواحدة، وهو يصدر صفيرًا غير مسموع من بين أسنانه وهو يصعد. انتظر "هارفي" حتى اختفى من أمامه ثم عاد إلى "ويندل" وقد ترك قطة الشوربة تبتعد.

قال صوت عندما ظهر عند باب المطبخ: "آه، والآن، انظر إلى هذا!"

كان "جايف" واقفًا عند الفرن، متوترًا كعهده دائمًا، وهو يرمي البيض من يد إلى الأخرى ويلقي بالكعكات من مقلاة لأخرى.

قال: "ماذا تشتهي؟ حلوى أم طعام مملح؟"

قال "هارفي": "لا شيء".

قال "ويندل": "إنه لذيذ". كان مختفيًا تقريبًا خلف جدار من الأطباق الممتلئة. "جرب مشهيات التفاح! إنها رائعة!"

تعرض "هارفي" لإغراء شديد. بدا البوفيه مغريًا للغاية. لكنه تراب. أخذ يذكر نفسه بهذا.

قال وهو يحول عينيه عن أكوام الحلوى والآيس كريم اللذيذة: "ربما لاحقًا".

سأله "جايف": "أين ستذهب؟"

قال "هارفي": "السيد ريكتوس يبحث لي عن هداياي".

ابتسم "جايف" ابتسامة راضية وقال: "إذن فقد عدت إلى طبيعة الأمور يا فتى! رائع!"

أجابه "هارفي": "افتقدت وجودي هنا".

لم يبق كثيرًا، تحسبًا لأن يرى "جايف" الكذب في عينيه، بل التفت واتجه إلى الردهة ثانية. كانت قطة الشورية ما زالت هناك تحدق فيه.

قال: "ما الأمر؟" اتجهت القطة ناحية السلم، ثم توقفت ونظرت إليه.

همس "هارفي": "هل لديك شيء تريني إياه؟"

وقتها سارت القطة ثانية. تبعها "هارفي"، متوقعًا أن تقوده أعلى السلم. لكن قبل أن تصل إلى مهبط السلم حادت إلى اليسار، وقادت "هارفي" عبر

ممر ضيق إلى باب لم يلحظه من قبل قط. هز المقبض، لكن الباب كان موصدًا. وهو يلتفت لينظر إلى قطة الشوربة وجدها تحك ظهرها المحني لأعلى في ساق منضدة صغيرة مستقرة بالجوار. وعلى المائدة كان هناك صندوق خشبي. وفي الصندوق كان هناك مفتاح.

عاد إلى الباب، وأدار المفتاح فيه، ثم فتحه. كان هناك سلم خشبيّ يقود لأسفل إلى الظلام الذي انبعثت منه رائحة كريهة رطبة. كان ليرفض النزول لولا أن قطة الشوربة تجاوزته مسرعة إلى الظلام.

وهو قابض بأصابعه على الجدران الرطبة إلى يساره ويمينه، تبع قطة الشوربة إلى قاع السلم، وعد الدرجات وهو ينزلها. كانت واحد وخمسين خطوة، ومع نزوله عليها اعتادت عيناه الظلام. كان القبو أشبه بالكهف لكنه خالي، فيما عدا بعض الركام وصندوق خشبيّ كبير، رقد على التراب على مسافة عشرة ياردات تقريبًا من حيث يقف.

قال بصوت كالهسيس لقطة الشوربة، وهو يعرف أن المخلوق ليس لديه سبيل للرد وإن كان يتمنى أن يمنحه إشارة: "ما هذا؟"

كانت إجابة القطة الشوربة الوحيدة هي أن تجري عبر الأرضية وتقفز برشاقة إلى الصندوق، حيث بدأت تخمش الخشب. كان فضول "هارفي" أكبر من خوفه، لكن ليس أقوى بحيث يندفع ليخلع القفل. اقترب كأن في الصندوق وحش نائم، وهو ما كان متيقنًا منه. كلما اقترب رأى الصندوق أشبه بتابوت بدائي.. لكن أي أنواع التوابيت يوصد بالأقفال؟ هل هنا حيث يرقد "قارنا"

ربما؟ بعد أن جر الوحش جسده المجروح إلى البيت؟ هل هو ينصت الآن إلى خمشات القطة الشورية على القفل منتظرًا الخروج؟

لكن مع اقترابه مسافة ياردة من التابوت رأى دليل على محتواه: خيط من مئزر، ترك معلقًا من الصندوق بفعل من أوصده. وهو يعرف الشخص الوحيد بالبيت الذي يرتدي مئزرًا.

همس وهو يجري أظافره تحت الغطاء: "السيدة جريفين! السيدة جريفين؟ هل أنت بالداخل؟"

سمع صوتًا مكتومًا من الداخل.

وعدها قائلاً: "سأخرجك". وهو يرفع الغطاء بأقصى ما يملك من قوة.

لم تكن لديه القوة الكافية لكسر القفل.

وفي يأسه بدأ يبحث في أرجاء القبو، عن أي أداة، فوجد حجرين. وهو يرفعهما عاد إلى التابوت.

حذر السيدة "جريفين" قائلاً: "ستصدر ضوضاء عالية".

ثم وباستعمال حجر كسندان والآخر كمطرقة، ضرب القفل. صدرت عن الحجرين شرارات زرقاء عندما ضربا المعدن، لكن هذا لم يترك فيه أقل أثر، ثم فجأة، صدرت عن القفل جلبة عالية وسقط على الأرض.

تجمد في مكانه للحظة، داعبت ريشة من الريبة عقله. لنفترض أنه تابوت "قارنا"؟ ثم نحى الحجرين جانبًا ورفع الغطاء.

* * *

18 - الحقيقة المُرّة

كاد يصيح بصوت مرتفع، وهو يرى الحالة المزرية التي كانت عليها السيدة "جريفين" المسكينة. كانت تحدق فيه بعينين مجنونتين، وشعرها مشدود ومتساقط، ووجهها مصاب بالجروح والسحجات. وقطعة قماش نتنة في فمها. أزالها "هارفي" بحرص، ثم بدأت تتكلم وصوتها لا يعلو عن همس أجش.

قالت: "شكرًا لك يا حبيبي، شكرًا لك. لكن لا، ما كان عليك أن تعود. المكان هنا خطير للغاية".

- "من فعل بك هذا؟!"

- "جايف وريكتوس".

قال "هارفي" وهو يساعدها في النهوض: "لكنه أمرهما بهذا، ألم يفعل؟ لا تقولي لي إنه ميت؛ لأنني أعرف أن هذا لا يهم. هود هنا في البيت، أليس كذلك؟"

قالت وهي تحتضنه مع خروجها من الصندوق: "أجل.. أجل، إنه هنا. لكن ليس بالطريقة التي تحسبها.." ثم بدأت تبكي، والدموع تخنق كلماتها.

قال "هارفي": "لا عليك. سيكون كل شيء على ما يرام".

صعدت أصابعها إلى وجهه ولامست الدموع..

- "حسبت.. حسبت أنني لن أبكي ثانية.. انظر ماذا فعلت!"

قال "هارفي": "أنا آسف".

ابتسمت بين عبراتها وقالت: "لا، لا يا حبيبي، لا تأسف. ما حدث رائع. لقد حطمت اللعنة المسلطة عليّ".

- "أية لعنة؟"

- "آه. إنها قصة طويلة".

- "أريد سماعها".

قالت: "كنت أول طفلة تأتي إلى بيت هود. كان هذا منذ سنوات عديدة عديدة. كنت في التاسعة من عمري عندما وقفت عند الطريق الأمامي. كنت هاربة من البيت".

- "لماذا؟"

- "ماتت قطتي ورفض أبي أن يشتري لي أخرى. وماذا منحني ريكتوس أول يوم أصل في رأيك؟"

قال "هارفي": "ثلاث قطط".

-"أنت تعرف كيف تدور الأمور في هذا البيت،أليس كذلك؟"

أومأ "هارفي" برأسه موافقا وقال: "إنه يمنحك ما تعتقدين أنك تريدينه".

- "وكنت أريد قططا، وبيتا، و.."

- "وماذا؟"

- "وأب آخر". ثم ارتجفت وهي تتذكر خوفها: "قابلت هود تلك الليلة. على الأقل سمعت صوته".

وصلت القطة الشورية إلى قدمها وتوقفت لتنحني وتمسك بالقطة بين يديها.

سألها "هارفي": "أين سمعته؟"

- "في العلية عند قمة البيت. وقال لي: إذا بقيت هنا، إلى الأبد، فلن تموتين أبدًا. ستكبرين، لكنك ستعيشين إلى نهاية الزمن، ولن تبكي أبدًا".

- "وكان هذا ما رغبتِ فيه؟"

- "كان سخيفًا، لكن أجل، كان هذا ما اشتهيته. كنت خائفة كما ترى. خائفة من أن أوضع تحت التراب مثل قطتي".

جاءتها نوبة بكاء جديدة، وسرت الدموع على وجنتيها الشاحبتين.. "كنت أهرب من الموت.."

قال "هارفي": ".. إلى بيت الموت مباشرة".

قالت السيدة "جريفين": "لا يا طفلي.. هود ليس الموت". ثم مسحت دموعها لترى "هارفي" بوضوح، وقالت: "الموت شيء طبيعي، لكن هود ليس كذلك. إنني أرحب بالموت الآن، فهو كصديق ابعدته عن بابي. رأيته كثيرًا يا حبيبي. مرت بي فصول كثيرة وأطفال كثيرون".

- "لماذا لم تحاولي إيقافه؟"

- "ليست لدي قوة ضده. كل ما قدرت عليه هو منح الأطفال الذين جاءوا أكبر قدر أقدر على توفيره من السعادة".

سألها "هارفي": "إذن فما هو سنك؟"

أجابته وهي تضع وجنتها على فراء القطة الشورية: "ومن يعرف؟ كبرت ونضجت في عداد أيام، لكن مرور الزمن فقد تحكمه في. أحيانًا أريد أن أسأل أحد الأطفال: أي علم هو في العالم الخارجي؟"

- "يمكنني أن أخبرك".

قالت وهي تضع إصبعها على شفتيه: "لا تفعل، لا أريد أن أعرف كم السنوات التي طارت. سيؤلمني هذا كثيرًا".

- "ماذا تريدين إذن؟"

قالت: "أن أموت. أن يسقط عني جلدي، وأذهب إلى النجوم".

"هل هذا ما يحدث؟"

قالت: "هذا ما أؤمن بحدوثه. لكن هود لن يدعني أموت. أبدًا. هذا انتقامه مني، عليّ مساعدتك في الفرار. لقد قتل القط الأزرق؛ لأنه أراك طريق الخروج".

قال "هارفي": "سيدعك هود. أعدك. سأجبره على هذا".

هزت رأسها وقالت: "أنت بالغ الشجاعة يا حبيبي. لكنه لن يدع أي منا يرحل. هناك فراغ بشع داخله. إنه يريد أن يملأه بالأرواح، لكنه كالحفرة العميقة.. حفرة بلا قرار.."

قال صوت معسول: ".. وأنتما في طريقكما إليها". كانت المتحدثة هي "مار". كانت في طريقها أسفل السلم.. "إننا نبحث عنك بالأعلى والأسفل". هكذا قالت لـ"هارفي".. "الأفضل أن تأتي معي أيها الطفل".

مدت ذراعيها ناحية "هارفي". تذكر كيف كانت لمستها التحويلية. قالت: "تعال! تعال! ما زال ممكنًا أن أخرجك من المشكلات لو تركتني أحولك إلى شيء متواضع. إنه يحب الأشياء المتواضعة، السيد هود .. البراغيث، والديدان، والكلاب المصابة بالجرب. تعال إليّ يا طفلي! بسرعة!"

دار "هارفي" بعينيه في القبو. لم يكن هناك مخرج آخر. لو أراد أن يُخرج السيدة "جريفين" إلى الشمس فعليه أن يصعد عن طريق السلم، و"مار" واقفة أمامهما.

تقدم خطوة ناحيتها. ابتسمت له بفم خالٍ من الأسنان.

قالت: "جيد يا طفلي، جيد".

قالت السيدة "جريفين": "لا تفعل. سوف تؤذيك".

قالت "مار": "اصمتي يا امرأة. سنضطر لتثبيت ذلك القفل بالمسامير في المرة القادمة!"

ثم عادت عيناها الخضراوان اللزجتان إلى "هارفي" وهي تقول: "إنه يعرف مصلحته. أليس كذلك يا ولد؟"

لم يرد "هارفي". بل استمر في التقدم من "مار" التي بدت أصابعها كأنها قرون قوقعة حلزون، وهي تمتد لتثبت نفسها على وجهه.

استرسلت "مار" قائلة: "كنت صبيًا مطيعًا.. ربما لن أحولك إلى دودة. ماذا تود؟ قل لي. قل لي ما يشتهيه قلبك.."

قال "هارفي" وهو يقترب من "مار": "دعك من قلبي. ماذا عن قلبك أنت؟"

لاحت نظرة استعجاب على وجه "مار"، وقالت: "قلبي؟"

قال "هارفي": "أجل. بم تحلمين أن تتحولي؟"

قالت بلهجة قاطعة: "أنا لا أحلم أبدًا".

قال لها "هارفي": "عليك أن تجربيه. إذا أردت تغييري إلى دودة، أو وطواط، فماذا ستفعلين بنفسك في المقابل؟"

صار الحزم المرتسم على وجهها ارتباكًا، وتحول الارتباك إلى ذعر. بدأت أصابعها الممتدة تتراجع. لكن "هارفي" اقترب منها بسرعة البرق ليمزج أصابعه بأصابعها.

قال لها: "ماذا تريدي أن تكوني؟ هيا فكري!"

بدأت تصارعه، وشعر بالسحر ينطلق عبر أصابعها إلى أصابعه محاولاً تغييره. لكنه لم يعد راغبًا في التحول إلى وطواط مصاص دماء، وبالطبع لا يريد أن يصبح دودة. كان سعيدًا بنفسه كما هو. وهكذا فلم يجري السحر مجراه فيه. بل تدفق إلى "مار"، التي بدأت ترتجف كأنها سقطت في مياه مثلجة.

سألته: "ماذا.. ماذا.. تـ.. تفعل؟"

قال لها وهو يرد عليها دعوتها: "قولي لي ما يشتهيه قلبك".

أجابته محاولة خلع أصابعها من أصابعه: "لن أخبرك!"

لكنها لم تعتد على أن يقاومها ضحاياها بهذه الطريقة. كانت عضلاتها طرية وناعمة. أخذت تجذب وتجذب، لكنها لم تقدر على الفكاك منه.

قالت: "دعني لشأني! إذا آذيتني فسوف يقتلك السيد هود".

أجابها "هارفي": "أنا لا أؤذيك. أنا فقط أدعك تحلمين بالطريقة التي تركتني أحلم بها".

صاحت وهي تقاومه أكثر من ذي قبل: "لا أريد أحلامي!"

لم يدعها. بل قرّبها منه، وكأنها سيلفها بين ذراعيه. بدأت تبصق عليه بصقات لزجة كبيرة، لكنها مسحها من على وجهه واقترب أكثر.

بدأت تغمغم قائلة: "لا.. لا.."

لكنها لم تقدر على منع السحر الذي قصدت إيذاؤه به من أن يؤتي ثماره على جلدها وعظمها. بدأ وجهها البدين يلين ويسيل مثل الشمع السائل.. وترهل جسدها متخذًا شكل معطف متسع، وبدأ سائل أخضر يسيل على الأرض.

قالت باكية: "آه.. أيها الطفل الملعون.."

تساءل "هارفي" أي حلم هو، أي حلم حول "مار" إلى هلام؟ أخذت تتضاءل مع مرور الوقت، وسقطت عنها ملابسها وبدأ جسدها ينكمش، وأصبح صوتها رفيعًا. يمكن أن تمر لحظات قليلة ثم تختفي تمامًا.

قال "هارفي" وأصابع "مار" تجري بين أصابعه مثل الماء الأسن: "بم تحلمين؟"

أجابته "مار" وعيناها تغرقان في جمجمتها المتلاشية: "أحلم بلا شيء.. وهذا.. ما.. سأصبح.. عليه.." كانت قد اختفت تقريبًا في طيات ثيابها. قالت ثانية: "لا شيء.." لم تعد أكثر من بركة قذرة ينبعث منها صوت آخذ في التلاشي.. "لا شيء.."

ثم اختفت، وقد التهمها سحرها بالكامل.

قالت السيدة "جريفين": "لقد فعلتها! فعلتها يا طفلي!"

قال "هارفي": "انتهينا من واحدة، ويبقى ثلاثة".

- "ثلاثة؟"

- "ريكتوس، وجايف، وهود نفسه".

- "نسيت قارنا".

- "أما زال حيًا؟"

أومأت السيدة "جريفين" برأسها موافقة: "أخشى أنني سمعت صرخاته كل ليلة. إنه يريد الانتقام".

قال "هارفي" وهو يأخذ بذراعها ويصاحبها إلى مهبط السلم: "وأنا أريد استعادة حياتي.. سأنال منه يا سيدة جريفين. مهما لزم هذا، سأنال منه".

اختلست السيدة "جريفين" نظرة إلى كومة الثياب التي علّمت مكان اختفاء "مار" في الهواء.

قالت ودهشة تداخل صوتها: "ربما تقدر على هذا.. من بين كل الأطفال الذين حضروا إلى هنا، فربما تكون من سيهزم السيد هود بقواعد لعبته".

* * *

19- من التراب إلى التراب

كان "ريكتوس" في الانتظار عند بداية السلم. وابتسامته عذبة، لكن ليست كلماته.

قال: "أصبحت قاتلاً أيها الشاب. هل أحببت الإحساس بدم مار على يديك؟"

قالت السيدة "جريفين": "إنه لم يقتلها. لم تكن حية قط. ولا أي منكم".

سألها "ريكتوس": "ماذا نحن إذن؟"

أجابه "هارفي" وهو يمرر السيدة "جريفين" وقطتها عبر "ريكتوس" إلى الباب الأمامي: "أوهام.. كلها أوهام".

تبعهم "ريكتوس" وهو يضحك بجنون.

قال "هارفي" وهو يفتح الباب ليدع السيدة "جريفين" تخرج إلى الشمس: "ما المضحك هكذا؟"

أجابه "ريكتوس": "أنت! تحسب أنك تعرف كل شيء، لكنك لا تعرف السيد هود".

قال "هارفي": "سأفعل بعد قليل". ثم قال للسيدة "جريفين": "اذهبي واستدفئي.. سأعود".

قالت: "احترس يا طفلي".

قال لها: "سأفعل". ثم أغلق الباب.

قال "ريكتوس" وابتسامته تتراجع قليلاً: "أنت غريب". ثم وعندما لم تعد أسنانه تلمع بعد أن أغلق فمه، أصبح وجهه أشبه بقناع من العجين. ثقبان على سبيل العينين، وبقعة على سبيل الأنف.

قال وقد غابت كل الموسيقى عن صوته: "يمكنني سحب عقلك من أذنيك".

قال "هارفي": "ربما تقدر. لكنك لن تفعل".

- "وكيف عرفت؟"

- "لأن لدي موعد مع سيدك".

شرع في المشي ناحية قاعدة السلم، لكن قبل أن يصله تقدّم كيان أسود أمامه. كان "جايف"، وكان في يده طبق من كعك التفاح والآيس كريم.

قال: "إنها رحلة طويلة لأعلى. لتضع شيئًا في معدتك أولاً".

نظر "هارفي" إلى الطبق. كانت الكعكة ذهبية بنية وعليها سكر مرشوش، والآيس كريم يسيل في بركة بيضاء عذبة! كانت مغرية.

قال "جايف": "هيا. أنت تستحق الأكل".

قال له "هارفي": "لا. أشكرك".

سأله "جايف": "لم لا؟" وهو يدور دورة كاملة على عقبيه.. "إنه أخف مني!"

قال "هارفي": "لكنني أعرف ما هو مصنوع منه".

- "التفاح والقرفة و.."

قال "هارفي": "لا. أعرف ما هو مصنوع منه فعلاً".

عاود النظر إلى الكعكة، وللحظة بدا كأنه رأى حقيقة الشيء.. التراب والرماد الرمادي الذي صنع منه هذا الوهم.

قال "جايف": "هل تعتقد أنها مسمومة؟ هل هذا هو السبب؟"

أجابه "هارفي": "ربما". وهو ما زال يحدق في الكعكة.

قال "جايف": "إنها ليست كذلك! وسوف أثبت لك هذا!" سمع "هارفي" "ريكتوس" يحذره من خلفه، لكن "جايف" لم يسمعه. غرس أصابعه في الكعكة والآيس كريم وأدخلهما إلى فمه في حركة سريعة. وهو يغلق فمه قال "ريكتوس": "لا تبتلعها!"

ومرة أخرى تأخر كثيرًا. مضى الطعام إلى معدته مرة واحدة. وبعد لحظة أسقط "جايف" الطبق وبدأ يضرب بقبضتيه بقوة على معدته، كأنه يريد إخراج الطعام ثانية. لكن بدلاً من الكعكة نصف الممضوغة، خرجت سحابة من التراب من بين أسنانه. ثم ثانية، ثم ثالثة. وقد ذهب نصف بصره قبض "جايف" على رقبة "هارفي".

قال ساعلاً: "ماذا.. فـ.. فعلت.. بي؟"

لم يجد "هارفي" صعوبة في تحرير نفسه منه.

قال: "كله تراب. قذارة وتراب، ورماد وغبار! كل الطعام! وكل الهدايا! وكل شيء!"

قال "جايف" وهو يقبض على فمه: "النجدة! ليساعدني أحد!"

قال صوت مهيب: "فات أوان مساعدتك!"

التفت "هارفي". كان "ريكتوس" هو من تكلم، وهو يتراجع عبر الردهة ويداه قابضتان على وجهه. حدق في "جايف" من بين أصابعه، وأسنانه ترتجف وهو ينطق بالحقيقة المفزعة: "ما كان عليك أن تأكل هذه الكعكة.. إنها تذكر معدتك بما أنت مصنوع منه".

قال "جايف": "وما هو؟"

أجابه "ريكتوس": "كما يقول الولد.. تراب وقذارة!"

ألقى "جايف" برأسه إلى الخلف، وهو يعوي قائلاً: "لاااا!" وحينها، وهو يفتح فمه لينكر ما قيل، تدفقت الحقيقة خارجة منه: سحابات جافة من التراب جرت من جوفه لتغرق غضبه. كأنها رسالة مميتة تمرر من جزء من جسده إلى آخر. وحين لامس التراب أصابعه بدأت تنهار هي الأخرى، ثم سقطت، وسرت نفس همسة التحلل عبر ساقيه وركبتيه وقدميه. شرع في السقوط على الأرض، لكن وفي دورة أخيرة لجسده، أدار نفسه وأمسك بالدرابزين. صاح مخاطبًا أعلى السلم: "أنقذني! هل تسمعني يا سيد هود؟ أرجوك! أرجوك، أنقذني!"

انهارت ساقيه تحته، لكنه رفض الاستسلام. بدأ يرفع نفسه أعلى السلم، وهو ما زال يصيح في السيد "هود" كي يعالجه.. لكنه لم يجد جوابًا من أعلى البيت، ولا صدر أي صوت عن "ريكتوس". لم يكن من صوت غير رجاء "جايف" وصوت تنفسه المجهد، وهسيس التراب وهو يجري أسفل السلم من كيس جسده الفارغ.

قال "ويندل" وقد ظهر عند المطبخ والكاتشاب يلطخ شفتيه: "ماذا يجري؟"

حدق في سحابة التراب المعلقة حولَ السلم، غير قادر على رؤية المخلوق الواقع في منتصفها. لكن "هارفي" كان أقرب إلى السحابة، وشهد لحظات "جايف" الأخيرة المفزعة. تقدم المخلوق المُحتضر للأعلى بيد تكاد تخلو من الأصابع، وهو ما زال يتمنى أثناء انهيار جسده أن يأتي صانعه لينقذه. ثم تهاوى على السلمِ، وانهارت آخر بقاياه التعسة.

قال "ويندل" وتراب "جايف" يستقر: "هل كنتم تنفضون السجاد؟"

غمغم "هارفي" مخاطبًا نفسه: "سقط اثنان".

تساءل "ويندل": "ماذا قلت؟"

قبل أن يجيبه أدار "هارفي" بصره إلى الردهة بحثًا عن "ريكتوس".

لكن خادم "هود" الثالث كان قد اختفى. قال: "لا يهم. هل انتهيت من الأكل؟"

- "أجل".

- "هل كان الطعام جيدًا؟"

ابتسم "ويندل" وقال: "أجل".

هز "هارفي" رأسه بعلامة النفي. سأله "ويندل": "ماذا تعني؟"

كان "هارفي" على وشك أن يقول: أعني أنك لا تقدر على مساعدتي، أعني أنني سأصعد لأواجه السيد هود وحدي. لكن ما الفائدة؟ استولى البيت

تمامًا على "ويندل". سيكون عقبة أكثر منه معاونًا في المعركة المقبلة. لذا بدلاً من هذا قال: "السيدة جريفين بالخارج".

- "إذن فقد وجدناها؟"

- "وجدناها".

قال "ويندل" بابتسامة مرحة: "سأذهب لأحييها".

"فكرة جيدة".

قبض "ويندل" على الباب ثم التفت وقال: "أين ستكون؟"

لكن "هارفي" لم يجبه. كان قد صعد السلم بالفعل وتجاوز كومة التراب حيث سقط "جايف"، واقترب من الطابق الأول، في طريقه لمواجهة القوة التي تنتظره في ظلام العلية.

* * *

20- السارقان يتقابلان

رؤية الحقيقة الترابية كالكعك والآيس كريم شيء، لكن خدش قشور الخداع التي صنعها البيت بمهارة تامة شيء آخر.

و"هارفي" يصعد السلم تمنى أن يجد علامة ما على الجدران أو الأبسطة تسمح له بأن يغرس أصابعه العقلية تحت قشرة الوهم ويرفعه ليرى الشيء غير الساحر الراقد تحتها. إذا كانت "مار" من الطين والبصاق النتن، و"جايف" من التراب، فمم صنع البيت نفسه؟ لكنه يعرف عمله كما يجب. ومهما نظر "هارفي" ودقق فلم يقدر على اختراق حجبه. سر حواسه بالدفء والألوان وروائح الصيف، وداعب أذنيه بنعومة وهبَّ نسيمه الدافئ في وجهه.

حتى عندما وصل إلى المنبسط المظلم المؤدي إلى الجزء الأخير من السلم، استمر البيت في التظاهر بأنه يلعب لعبة "استغماية" بريئة، مثل الألعاب التي لا حصر لها التي رآها في ظلاله. كان هناك خمسة أبواب واقعة أمامه، وكلها مفتوحة بضعة بوصات، وكأنها تقول: ليس هناك أسرار مخفيَّة، ليس على ولد يريد معرفة الحقيقة. تعال وانظر! تعال وانظر! إذا جرؤت.

إلا أنه جرؤ، لكن ليس بالطريقة التي خطط لها البيت. بعد قضاء لحظات قليلة في اختبار الأبواب، تجاهلها جميعًا، وبدلاً من هذا عاد أسفل السلم، واختار مقعدًا قويًا من أحد حجرات النوم، وجلبه معه أعلى السلم، وصعد فوقه ليفتح الباب العلوي ليصعد إلى العلية.

كان الصعود صعبًا، لكنه عرف أنه عندما ينتهي مما يفعله ويجلس لاهثًا على أرضية العلية، فهو يقارب نهاية مطاردته لـ"هود". كان ملك مصاصي الدماء قريبًا. مَن غير سيد للأوهام يعيش في مكانٍ خالٍ منها؟ كانت العلية مخالفة تمامًا لطبيعة البيت: نجسة، ومعتمة ومليئة بأعشاش العنكبوت.

قال: "أين أنت؟" لم يجد نفعًا أن يحاول مفاجأة عدوه. كان "هود" يراقب صعوده من الطابق الأول. صاح: "اخرج. أريد أن أرى كيف يبدو السارق".

لم يجد إجابة في البداية، ثم ومن مكان ما عند نهاية العلية، سمع "هارفي" زمجرة واطئة النبرة عميقة. ودون أن ينتظر حتى تعتاد عيناه الظلام تقدم إلى مصدر الزمجرة، وصرت ألواح الأرضية تحت قدميه وهو يمشي. نظر لأعلى مرتين؛ لأن جلبة انبعثت من الظلام أعلاه وجذبت انتباهه. هل هذا طير محبوس وقد أصيب بالذعر فأخذ يطير للأمام والخلف بجنون؟ أم لعلها صراصير مجمعة على أعمدة السقف أعلاه؟

قال لنفسه إن عليه إبعاد هذه الخيالات عن رأسه والتركيز في العثور على "هود". كانت هناك أسباب حقيقية كافية لتخيفه دون البحث عن المزيد. وعلى النقيض من المنطقة المحيطة بالباب الذي صعد منه، فكانت نهاية العلية نوعًا من مكان للتخزين، ولابد أن عدوه يسكن متاهة اللوحات المتعفنة والأثاث الرث. في الواقع، ألم تكن ما رآه من ركن عينه الآن حركة أشبه بالرفرفة؟

قال وهو يضيق عينيه محاولاً تبين الشكل الراقد في الظلام: "هود؟ ماذا تفعل باختبائك هنا؟"

تقدم خطوة أخرى للأمام.. وهو يتقدم، أدرك الخطأ الذي ارتكبه. لم يكن هذا السيد "هود" الغامض. تعرف على الكيان رغم تشوّهه: الأجنحة نصف

المتحللة، والعينين السوداوين الصغيرتين، ,الأسنان، التي لا حصر لها.. كان "قارنا"!

نهض المخلوق قليلاً من غشه القذر، وهو يهاجم "هارفي".

تراجع متعثرًا، وكان ليمسك به "قارنا" بعد التراجع ثلاث خطوات، لولا أن الأخير تباطأ متأثرًا بجراحه والفوضى العارمة التي تحيطه.

ضرب أكوام الركام إلى اليسار واليمين، وتناثرت المقاعد وانقلبت الصناديق، ثم نهض يطارد فريسته متألمًا.

ثبت "هارفي" عينيه على الوحش وهو يتراجع، وعقله ممتلئ بالأسئلة. أين "هود"؟ ما هو السر الأكبر؟ كانت السيدة "جريفين" واثقة من أنه بالأعلى في مكان ما، لكن "هارفي" جال في العلية من طرف إلى الآخر، وكان شاغلها الوحيد هو المخلوق الذي يطارده إلى مخرجها.

خاطر بالنظر عدة مرات في الظلال وهو يتراجع، في حالة إن كان قد أخطأ أي من الأشكال المخفية عنه. لكن الشكل الذي حطت عيناه عليه غير آدمي، كان كرة في حجم كرة التنس، تلمع كأنها مليئة بضوء النجوم. بدت مثل فقاعة تفور من بين ألواح الأرضية ثم صعدت إلى السقف. على الفور نسى "هارفي" الخطر المحدق به وراقبها وهي تصعد، لتنضم إليها كرة ثانية، ثم ثالثة، ورابعة.

وقد أثار المشهد عجبه، لم يهتم بالمكان الذي يسير إليه. تعثر وسقط، وانتهى به الحال متكومًا على الأرضية الصلبة، وهو يحدق في السقف عبر ظل أحمر من الألم. وفوقه تبدى "هود" بكل مجده وعظمته.

كان وجهه منتشرًا بطول السقف بأكمله، وملامحه مشوَّهة بصورة مرعبة. كانت عينيه حُفَر مظلمة كأنها محفورة في الخشب، وأنفه متوهج ومفلطح بصورة غريبة، مثل أنف وطواط هائل، وفمه الخالي من الشفاه يبلغ طوله عشرة أقدام.. وصدر منه صوت أشبه بصرير الأبواب وعواء المداخن، واهتزاز النوافذ.

قال: "أيها الطفل! لقد جلبت الألم إلى فردوسي. خسئت!"

صاح "هارفي": "أي ألم؟" كان يرتجف إلى نخاع عظامه، لكنه عرف أن الوقت ليس مناسبًا ليظهر مخاوفه. سيتعامل مع الوهم بنفس الطريقة التي يتعامل بها العدو، يتظاهر بالشجاعة رغم أنه لا يحسها.. "لقد أتيت لآخذ ما لي.. هذا كل شيء".

شفط "هود" إحدى الكرات اللامعة إلى فمه، فانطفأ نورها على الفور.

قال: "ماتت مار، ومات جايف. تحولا إلى طين وتراب بسببك!"

قال "هارفي": "لم يكونا أحياءً قط".

سأله "هود" وانعقاد جبينه يزداد: "ألم تسمع نشيجهما وطلبهما للرحمة؟ ألم تشفق عليهما؟"

قال "هارفي": "لا".

جاءه الجواب القاسي: "إذن فلن أشفق عليك. سأراقب قارنا المسكين يلتهمك من أخمص قدميك إلى رأسك، وأستمتع بالمشهد".

نظر "هارفي" تجاه "قارنا". كان الوحش قد كف عن التقدم، لكنه في وضع الاستعداد للهجوم، وفكيه على مسافة بوصات من ساقي "هارفي".

والآن وقد تجمد الوحش تمامًا، رأى مدى خطورة جراحه، وجسده الذي تحلل مثل البساط القديم، ورأسه الكبير الذي يعاني من كل نفس يتنفسه.

و"هارفي" يحدق فيه تذكر شيئًا قالته له السيدة "جريفين"، قالت: " إنني أرحب بالموت الآن، فهو كصديق ابعدته عن بابي"

لعل ما ينتظر "قارنا" ليس رحلة إلى النجوم، بل مجرد العودة إلى العدم الذي جلبه منه "هود". لكن المخلوق أراد هديته. كان متعبًا ومجروحًا، لكنه لم يحيا بسبب رغبته، بل لأن "هود" بحاجة إلى خدماته. قال الصوت مغمغمًا من السقف: "شيء مؤسف.."

قال "هارفي" وهو يعاود النظر إلى "هود" الذي كان على شفتيه كرتين آخريين: "ما هذا؟".. استرسل الأخير قائلاً: "أن أفقدك بهذا الشكل. ألا يمكنني إقناعك بالتفكير ثانية؟ بعد كل شيء فأنا لم أصيبك بأذى. لم لا تعود وتعيش هنا في سلام؟"

قال "هارفي": "لقد سرقت واحد وثلاثين عامًا من حياة أمي وأبي معي! إذا بقيت هنا ستسرق المزيد". احتج "هود" قائلاً: "بل أخذت الأيام التي لا تريدها فقط. الأيام الممطرة. والأيام الرمادية. والأيام التي تتمنى رحيلها. ما الجرم في هذا؟"

قال "هارفي" محتجًا: "لم أعرف ما كنت أخسره".

قال "هود" بنعومة: "آه.. لكن أليس هذا هو الحال دومًا؟ تنزلق الأشياء من بين أصابعك وعندما تمضي تندم عليها. لكن ما رحل قد رحل، يا هارفي سويك!"

قال "هارفي": "لا! يمكنني سرقة ما سرقته أنت".

وقتها لمع ضوء في عينا "هود" الشبيهتين بالحفرتين.

قال: "أنت تلمع متوهجًا يا هارفي سويك! لم أعرف قط روحًا تتوهج بهذا القدر كروحك" قطب جبينه كأنه يدرس الولد الواقف تحته وأضاف: "فهمت الآن".

- "ماذا فهمت؟"

- "لماذا عدت".

كاد "هارفي" يقول: عدت لآخذ ما أخذته، لكن "هود" صححه قبل أن ينطق كلمتين.

قال "هود": "عدت لأنك تعرف أن بيتك هنا.. كلانا لصوص يا هارفي سويك. أنا أسرق الوقت وأنت تسرق الحياة. لكن في النهاية نحن متماثلان: سارقا الأبد".

رغم نفوره من التفكير في نفسه على أنه يشبه هذا الوحش، فقد وجد جزء من "هارفي" هذا حقيقي. فأسكتته الفكرة. قال "هود": "ربما لا نحتاج لأن نكون أعداء. ربما عليّ أن آخذك تحت جناحي. جناحي الغربي".

ضحك بلا بهجة حقيقية على مزحته وأضاف: "يمكنني رعايتك.. أساعدك حتى تفهم سبل الظلام أفضل".

قال "هارفي": "وينتهي بي الحال بالتهام الأطفال مثلك؟ لا، شكرًا".

قال "هود": "أعتقد أنك ستحب هذا يا هارفي سويك. لديك خصائص مصاص الدماء بالفعل".

لم يقدر على إنكار هذا. كلمة مصاص دماء نفسها ذكرته بالطيران في عيد كل القديسين، والتحليق تحت قمر الحصاد بعينين تحترقان بالأحمرار وأسنان حادة كالشفرات.

قال "هود" وهو يلمح توهج السرور في وجه "هارفي": "أرى أنك تذكرت".

استبدل "هارفي" السرور بالعبوس على الفور وقال: "لا أريد الإقامة هنا. أريد آخذ ما يخصني والخروج".

تنهد "هود" وقال: "شيء مؤسف. مؤسف جدًا. لكن إذا أردت أخذ ما يخصك، فخذ الموت. قارنا!" رفع الوحش رأسه.

"التهم الولد!"

قبل أن يتمكن الوحش التعيس من رفع نفسه هب "هارفي" إلى قدميه. وفي سباق ناحية باب العلية عرف أن فرصته تفوق فرصة "قارنا"، لكن هل ثمة طريقة أخرى لهزيمة الوحش؟ إذا كان سارقًا للأبد كما قال "هود"، فربما حان الوقت ليثبت هذا. ليس بالتراب، ولا بسحر مسروق، بل بقوة منبعثة من عظامه.

تقدم "قارنا" خطوة منه، لكنه تراجع على الفور حين بسط "هارفي" يده تجاه المخلوق، كأنه يربت على رأسه المتحلل. تردد وتحول تعبير وجهه إلى الريبة. زأر الملك مصاص الدماء: "التهمه.."

خفض الوحش رأسه، متوقعًا العقاب من الأعلى. لكن "هارفي" هو الذي وضع يده عليه، لمسة خفيفة سرت معها رعشة عبر جسده. رفع خطمه

لينضغط على كف "هارفي"، وهو يفعل هذا انبعثت منه آهة طويلة واطئة النبرة.

لم يكن في الصوت ألم أو شكوى. في الواقع كانت كأنها آهة عرفان بالجميل، فلمرة لم يجد عواء وصياح الرعب. حولّ عينيه إلى وجه "هارفي"، وسرت رعشة من المتعة عبر جسده. كأنه يعرف أن الحركة قاتلة؛ لأنه بعد لحظة تراجع مبتعدًا عن الشخص الرابض عليه، وهو يتراجع تضاعفت رعشاته، وانفجر جسده فجأة إلى ألف قطعة.

تكومت أسنانه، التي بدت مخيفة منذ لحظات، في الظلام، وانفجرت جمجمته الهائلة، وانهار عموده الفقري. في ثوانٍ قليلة لم يعد أكثر من كومة من شظايا العظام الجافة والعجوز يتجاهلها كلب مار إلى جوارها.

رفع "هارفي" بصره إلى السقف. كان تعبير وجه "هود" هو التعجب التام. كان فمه مفتوحًا، وعيناه تحدق فيه من حفرتيهما.

لم ينتظر "هارفي" حتى يكسر الصمت. أدار ظهره ببساطة لبقايا "قارنا" وهرول ناحية الباب، وهو يتوقع أن يغلقه المخلوق المعلق في السقف. لكنه لم يجد رد فعل من "هود"، حتى نزل "هارفي" على السلم المستقر أسفل الباب. وقتها فقط ألقى "هارفي" بنظرة أخيرة على العلية، وتكلم "هود".

غمغم: "أيها السارق الصغير.. ماذا أفعل بك الآن؟"

* * *

21- خدع وإغراءات

قال الوجه المبتسم الذي انتظره أعلى السلم: "تصرفت بمهارة".

قال "هارفي" لـ"ريكتوس": "تساءلت أين ذهبت".

جاءه الجواب المتزلف: "دائمًا مستعد للخدمة".

قال "هارفي" وهو ينزل عن المقعد ويقترب من المخلوق: "حقا؟"

قال "ريكتوس": "بالطبع.. دائمًا".

الآن وقد اقترب من الرجل، رأى "هارفي" شقوقا في قشرة جسده. كان يغطي نفسه بابتسامة، ويغمس كلماته في الزبد والعسل، لكن رائحة الخوف اللاذعة تسربت من جلده.

قال "هارفي": "أنت تخشاني، أليس كذلك؟"

قال "ريكتوس" بإصرار: "لا، لا. أنا أحترمك. هذا كل شيء. يعتقد السيد هود أنك ولد ذكي. وأمرني بأن أقدم لك ما تشاء لأجعلك تبقى".. ثم فرد ذراعيه وقال: "وحدودك هي السماء".

- "أنت تعرف ما أريده".

- "أي شيء بخلاف السنوات أيها السارق. لا يمكنك الحصول عليها. لن تحتاجها حتى إذا بقيت وصرت تلميذ السيد هود. ستعيش إلى الأبد مثله". ثم مسح العرق من على شفته العليا بمنديل مصفر وقال: "فكر في الأمر.. ربما

تتمكن من قتل أمثال قارنا.. أو مثلي.. لكنك لن تقدر على أنية هود أبدًا. إنه عجوز للغاية، وحكيم للغاية، وميت للغاية".

قال "هارفي": "إذا بقيت.."

اتسعت ابتسامة "ريكتوس" وقال بنعومة: "أجل؟"

- "هل سيتحرر الأطفال المحبوسون في البحيرة؟"

- "ولماذا تزعج نفسك بهم؟"

ذكره "هارفي" قائلاً: "لأن أحدهم صديقتي".

قال "ريكتوس": "أنت تفكر في لولو الصغيرة، أليس كذلك؟ دعني أخبرك، إنها سعيدة للغاية بالأسفل. جميعهم كذلك".

قال "هارفي" غاضبًا: "لا ليسوا كذلك! البحيرة فاسدة وأنت تعرف هذا". ثم اقترب خطوة من "ريكتوس" الذي تراجع كأنه خائف على حياته، وهو على الأرجح ما أحس به.. قال "هارفي": "ما رأيك؟" وهو يلوح بإصبعه تجاه "ريكتوس" ويضيف: "أن تحيا في البرد والظلام؟"

قال "ريكتوس" وهو يرفع يديه مستسلمًا: "أنت محق. أيًا كان ما تقوله فهو صحيح".

أجابه "هارفي": "أقول أن عليك بتحريرهم الآن! وإذا لم تفعل، فسوف أفعل أنا!"

دفع "ريكتوس" جانبًا وشرع ينزل السلم كل درجتين في مرة واحدة. لم يكن يعرف ما سيحدث عند البحيرة، فالسمك سمك بعد كل شيء، حتى لو كان

ذات مرة أطفالاً. وإذا حاول نزعه من البحيرة فسوف يختنق في الهواء، لكن صمم على إنقاذهم بطريقة ما من "هود".

نزل "ريكتوس" السلم خلفه وهو يثرثر مثل بائع ساعات.

قال: "ماذا تريد؟ تخيله وسيكون لك! ما رأيك في دراجة بخارية؟" وهو يتكلم لمع شيء ما بالأسفل، وتجسدت أروع دراجة بخارية تراها عين بشر.. "إنها لك يا فتى!"

قال "هارفي": "لا، شكرًا".

قال "ريكتوس" وهو يركل الدراجة البخارية ويمر إلى جوارها: "أنا لا ألومك! ما رأيك في الكتب؟ هل تحب الكتب؟"

قبل أن يتمكن "هارفي" من الرد ارتفع الحائط المواجه له كستار كبير من الأحجار ليكشف عن أرفف مليئة بكتب مجلدة.

"ريكتوس":"أهم كتب العالم! من أرسطو إلى زولا! لا؟"

قال "هارفي" وهو ماضٍ في طريقه: "لا!"

قال "ريكتوس": "لابد أن هناك شيء تريده".

كانا يتوجهان ناحية الجزء الأخير من السلم، و"ريكتوس" يعرف أنه لم يعد أمامه وقت طويل حتى تخرج فريسته إلى الهواء الطلق.

قال "ريكتوس": "هل تحب الكلاب؟" مع ظهور جراء صغيرة تعوي وتنبح على السلم.. "اختر واحدًا! بل خذها جميعًا!" شعر "هارفي" بالإغراء، لكنه خطا فوقها ومضى.

قال "ريكتوس": "لعلك تريد شيء غريب ربما؟" مع رفرفة سرب من الببغاوات قادمين من السقف. لكن "هارفي" أبعدها بيده.

قال "ريكتوس": "تثير الضوضاء، أليس كذلك؟ أنت تريد شيء سريع وقوي. نمور! هذا ما تريده! نمور!"

ما إن قالها حتى ظهر في الردهة بالأسفل نمران أبيضان، بعيون من الذهب المصقول.

قال "هارفي": "ليس عندي مكان لأضعها فيه!"

قال "ريكتوس": "هذا سلوك عملي. أحب الطفل العملي".

ومع رحيل النمران رن الهاتف المجاور لباب المطبخ. نزل "ريكتوس" السلم في قفزتين وكان عند المائدة بعد خطوتين أخريين.

قال: "أنصت لهذا! إنه الرئيس. يريد منحك ميدالية!"

قال "هارفي" وقد تعب من كل هذه الجلبة: "لا، لا يريد هذا". وصل إلى مهبط السلم وعبر إلى الباب الأمامي.

قال "ريكتوس" وأذنه على الهاتف: "أنت محق. إنه يريد منحك حقل بترول في ألاسكا!"

استمر "هارفي" في التقدم.. "لا، لا، أخطأت! إنه يريد منحك ألاسكا!"

- "باردة للغاية".

- "يقول: ما رأيك في فلوريدا؟"

- "حارة للغاية".

- "أف! أنت شخص صعب الإرضاء يا هارفي سويك!"

تجاهله "هارفي"، وأدار مقبض الباب الأمامي. ضرب "ريكتوس" السماعة على الهاتف وهرول ناحيته.

صاح: "انتظر! انتظر! أنا لم أنته بعد".

قال "هارفي" وهو يفتح الباب الأمامي: "ليس عندك ما أريده.. كلها أشياء مزيفة".

قال "ريكتوس" وقد أسكته فجأة: "وماذا في هذا؟ كذلك الشمس بالخارج. أنت ما زلت تستمتع بها. ودعني أخبرك أن كل هذا يتطلب كثيرًا من السحر، والسيد هود أرهق نفسه ليحضر لك كل هذه الأشياء".

وهو يتجاهله خطا "هارفي" إلى الشرفة الأمامية. كانت السيدة "جريفين" واقفة على الممشى العشبي، ومعها القطة الشوربة بين ذراعيها، تحدق في البيت. ابتسمت عندما رأت "هارفي" يخرج.

قالت: "سمعت بعض الجلبة. ماذا جرى بالداخل؟"

قال "هارفي": "سأخبرك لاحقًا. أين ويندل؟"

قالت: "مشى مبتعدًا".

وضع "هارفي" يديه حول فمه وصاح: "ويندل! ويندل!"

عاد له صوته مرتدًا عن واجهة البيت. لكن لم يصله رد من "ويندل".

قال "ريكتوس" وهو يتمشى على الشرفة: "إنه أصيل دافئ، ربما خرج ليسبح".

غمغم "هارفي": "لا. لا. ليس ويندل. أرجوك ليس ويندل.."

هز "ريكتوس" كتفيه وقال: "كان ولدًا صغيرًا أحمق على أية حال. سيبدو أفضل كسمكة!"

صاح "هارفي": "لا! هذا ليس عدلاً! لا يمكنك أن تفعل هذا! لا يمكنك!"

بدأت الدموع تتجمع في عينيه. مسحها بقبضتيه. كانت بلا فائدة، القبضات والدموع. لا يمكنه ترقيق قلب "هود" بالبكاء، ولا يمكنه إسقاط البيت بالكلمات. ليس لديه سلاح ضد عدوه سوى عقله، وعقله شارف الانهيار.

* * *

22- شهية

ياه، أن أكون مصاص دماء ثانية.. هكذا قال "هارفي" لنفسه.. أن يكون لدي مخالب وأنياب واشتهاء للدم، مثل الاشتهاء الذي راوده في عيد كل القديسين القديم ذالك.. الاشتهاء الذي تحوّل عنه شاعرًا بالاشمئزاز. لن يتحول عنه الآن.. سيدعه يلتهم الوحش داخله، حتى يتمكن من الطيران في وجه "هود" بكراهيته وحقده حادين كالشفرة.

لكنه ليس وحشًا، إنه مجرد ولد. والملك مصاص الدماء هو الذي لديه القوة، وليس هو.

ثم إنه وهو يحدق في البيت تذكر شيئًا أخبره به "ريكتوس" عند الباب: " كل هذا يتطلب كثيرًا من السحر، والسيد هود أرهق نفسه ليحضر لك كل هذه الأشياء".

لعلي لست بحاجة إلى أنياب لأمتص دمه.. ربما أنا بحاجة إلى أمنيات.

قال لـ"ريكتوس": "أريد أن أتكلم مع هود".

- "لماذا؟"

- "ربما هناك أشياء أود الحصول عليها، لكن أريد أن أخبره بها شخصيًا".

قال "ريكتوس" وهو يختلس نظرة إلى البيت: "إنه ينصت إليك".

مسح "هارفي" النوافذ والشرفة الأمامية بعينيه لكنه لم ير علامة على وجود أحد، قال: "أنا لا أراه".

أجابه "ريكتوس": "بل تفعل".

سأله "هارفي" وهو يحدق عبر الباب الأمامي: "هل هو في البيت؟"

أجابه "ريكتوس": "ألم تخمن هذا بعد؟ إنه البيت".

وهو يتكلم حُجبت سحابة الشمس. اكفهرت الجدران والسقف، وبدا كأن البيت نما مثل فطر عملاق. كان حيًا! من جدرانه العليا إلى أساسه، حيًا!

قال "ريكتوس": "هيا! تكلم إليه. إنه يسمعك".

تقدم "هارفي" خطوة من البيت وقال: "هل تسمعني؟"

انفتح الباب الأمامي قليلاً ومرت تنهيدة من أعلى السلم ليخرج معها تراب "جايف" إلى الشرفة الأمامية.

قال "ريكتوس": "يمكنه سماعك".

قال "هارفي": "إذا بقيت.."

- "أجلللل..؟" قالها البيت، والكلمة تخرج على شكل أصوات صرير وصليل.

- ".. هل ستمنحني أي شيء أريده؟"

جاءه الجواب: "من أجل ولد ذكي مثلك.. أي شيء".

- "هل تعدني؟ تعدني بسحرك؟"

- "أعدك. أعدك. فقط قل الكلمة.."

- "حسن، كبداية.."

- "أجل؟"

- "فقدت سفينتي".

قال البيت "هود": "إذن يجب أن تحصل على أخرى يا عزيزي. سفينة أكبر وأفضل". ثم ثنى لوح خشبي من الشرفة الأمامية نفسه ليشكل سفينة يبلغ حجمها ثلاثة أضعاف الأولى.

قال "هارفي" وهو يسير ناحية درجات السلم: "لا أريد حيوانات من رصاص".

قال "هود": "كيف تريدها؟ فضة؟ ذهب؟"

أجابه "هارفي": "من لحم ودم. حيوانات كاملة صغيرة".

قال "هود": "أحب التحدي". وهو يتكلم صدرت عن السفينة جلبة خافتة من الصيحات والزئير، وانفتحت نوافذها وأبوابها الصغيرة وظهر خمسون حيوانًا، كلها أقزام دقيقة، من الأفيال، والزراف، والضباع، والغزلان، والحمام.

قال "هود": "هل رضيت؟"

هز "هارفي" كتفيه وقال: "لا بأس كما أعتقد".

قال "هود": "لا بأس؟ إنها معجزة صغيرة".

- "إذن اصنع لي أخرى".

- "سفينة أخرى؟"

- "معجزة أخرى!"

- "ماذا تريد؟"

أدار "هارفي" ظهره للبيت "هود" ومسح بعينيه الممشى العشبي. ألهمه مرأى السيدة "جريفين" الواقفة تراقب باستعجاب طلبه التالي، قال: "أريد زهورًا. في كل مكان! ولا أريد زهرتين متشابهتين".

سأله البيت "هود": "لماذا؟"

أجابه "هارفي": "قلت إن بإمكاني الحصول على ما أشاء. لم تقل إن علي منحك أسباب. إذا فعلت فسوف يتلاشى المرح".

قال البيت "هود": "أنا لا أريد هذا. يجب أن تستمتع بأي ثمن".

قال "هارفي" بإصرار: "إذن أمنحني زهورًا".

بدأ الممشى العشبي يرتجف كأن زلزالاً صغيرًا أصابه، وفي اللحظة التالية اندفعت من الأرض عدد لا حصر له من سيقان الزهور بين العشب. وبدأت السيدة "جريفين" تضحك بسرور.

قالت: "انظر إليها! فقط انظر إليها!"

كان عرضًا سريعًا، عشرات الآلاف من الزهور تتفتح في نفس اللحظة. كان "هارفي" ليقدر على تسمية بعضها لو لم يكن مشغولاً: زهور التيوليب والنرجس البري والورد الأحمر. لكن معظمها كانت جديدة عليه: أنواع تتفتح ليلاً على جبال الهملايا، وفي سهول "تييرا ديل فييجو" الواسعة التي تذروها الرياح، وزهور تتفتح كبيرة كرأسه، وأخرى صغيرة كظفره، وزهور رائحتها مثل اللحم النتن، وأخرى مثل رائحة الجنة.

رغم أنه كان يعرف أن هذا وهم، فقد أحس بالاندهاش وقال هذا.

قال للبيت "هود": "تبدو جيدة".

سأله: "هل رضيت؟"

هل كان صوته أضعف بقليل مما سبق؟ هكذا تساءل "هارفي". شك في هذا. لكنه لم يظهر أية علامة على تلك الريبة. قال ببساطة: "إننا نقترب من مقصدنا."

قال البيت "هود": "نقترب من أين؟"

قال "هارفي": "أعتقد أننا نعرف إلى أين سنصل".

صدرت عن البيت زمجرة امتعاض، واهتزت نوافذه. وانزلق لوح أو اثنين عن السقف وتحطما على الأرض.

قال "هارفي" لنفسه: علي أن أتوخى الحذر، "هود" غاضب.. وردد "ريكتوس" الفكرة.

حذره قائلاً: "أرجو ألا تحاول التغرير بالسيد هود. فهو لا يحب هذا النوع من الألعاب".

قال "هارفي": "إنه يريدني سعيدًا، أليس كذلك؟"

- "بالطبع".

- "إذن ماذا عن شيء آكله؟"

قال "ريكتوس": "المطبخ ملآن".

ـ "لا أريد فطائر و(هوت دوج). أريد.." سكت مراجعًا ذاكرته بحثًا عن الأطعمة اللذيذة التي سمع بها، ثم أضاف: "بجع مشوي ومحار، وتلك البيضات السوداء الصغيرة.."

اقترح عليه "ريكتوس": "كافيار؟"

ـ "هذا هو! أريد كافيار!"

ـ "حقا؟ إنه مقرف".

قال "هارفي": "ما زلت أريده.. وسيقان ضفادع، وفجل، ورمان.."

ظهرت الأكلات بالفعل في الردهة، طبق فوق طبق يتصاعد منه البخار. كانت الروائح مغرية في البداية، لكن كلما أضاف "هارفي" أطباق أخرى إلى القائمة أصبحت الرائحة خليط مقرف. سرعان ما اقترب من نهاية قائمته، وبدلاً من إعطاء البيت وصفات سهلة مثل البيتزا واللحم بدأ يخترع أطباق جديدة.

ـ "أريد سرطان بحري مطهي في صودا الكريز، وشرائح لحم الخيل في صوص الجيلي، وجبن بوسطن كريم وشوربة باسترامي.."

قال "ريكتوس": "انتظر! انتظر! أنت سريع جدًا.."

لكن "هارفي" لم ينتظر.

ـ".. وثريد من خبز البامبرنيكل ومحار حلو وساق خنزير"

عوى البيت قائلاً: "انتظر!"

هذه المرة توقف "هارفي".

وسط انشغاله باختراع الأطعمة لم ينظر ليرى إن كان "هود" قد أمده بهذه المأكولات، لكنه الآن رأى الأطباق التي طلبها مكومة عاليًا في الردهة حتى إنها تهدد بأن تنقلب لتبحر السفينة في بحر من اللحم والعصيدة والثريد.

قال البيت "هود": "أعرف ماذا تفعل".

قال "هارفي" لنفسه: آه.. لقد نال مني.

نظر ناحية المأدبة عند الباب ليرى أن خطته لسحب السحر من البيت قد نجحت. فقد كانت نوافذ كثيرة مكسورة أو مشققة، والأبواب مقشر عنها طلاؤها ومعلقة بمفاصلها تكاد تقع، وألواح الشرفة الأمامية الخشبية ملوية وبالية. قال "هود" وصوته الذي لم يكن موسيقيًا قط أصبح أقبح من أي وقت، مثل اضطراب في بطن الشيطان:

- "أنت تختبرني.. أليس كذلك؟ اعترف أيها السارق".

تنفس "هارفي" الصعداء وقال: "إذا كنت سأصبح تلميذك، فيجب أن أعرف مدى قوتك".

قال البيت المتحلل: "هل رضيت؟"

قال "هارفي": "تقريبًا".

قال زائرًا: "ماذا تريد أيضًا؟"

أريد المزيد.. أخذ عقله يدور بحثًا في قوائم سخيفة من الأشياء.. بقى له القليل من المطالب. قال البيت "هود": "يمكنك الحصول على هدية أخيرة واحدة.. إثبات واحد أخير على قوتي. ثم عليك قبولي كسيدك للأبد. اتفقنا؟ "

أحس "هارفي" بعرق بارد ينزل أسفل عموده الفقري. نظر إلى البيت المترنح وعقله يتسابق بحثًا عن الأفكار. ماذا بقى له ليطلبه؟

صاح البيت: "اتفقنا؟"

قال: "اتفقنا". استرسل في كلامه: "إذن قل لي.. ماذا تريد؟"

نظر إلى الحيوانات الصغيرة حول السفينة، وإلى الزهور، وإلى الطعام المكوم عند الباب. ماذا عليه أن يطلب؟ طلب واحد أخير يكسر به ظهر "هود". لكن ماذا؟ ماذا؟

هبت عليه رياح باردة من ناحية البحيرة. لا يمكن أن يكون الخريف بعيدًا. فصل الأشياء المحتضرة.

قال فجأة: "أعرف!"

قال البيت: "قل لي.. قل لي ودعنا ننتهي من هذه اللعبة إلى الأبد. أريد روحك البراقة تحت جناحي أيها السارق الصغير".

قال "هارفي": "أريد الفصول. كل الفصول مرة واحدة".

- "مرة واحدة؟"

- "أجل، مرة واحدة!"

- "هذا جنون!"

- "هذا ما أريده".

- "أحمق! معتوه!"

هذا ما أريده! وأنت قلت إن لي أمنية واحدة أخيرة!"

قال البيت: "حسن جدًا. سأمنحك إياها، وعندما تحصل عليها أيها السارق الصغير تصبح روحك ملكي!"

* * *

23- حرب الفصول

لم يضيع "هود" وقتًا. ما إن بدأ في تقديم هديته الأخيرة لـ"هارفي" حتى هبت الرياح قوية، حاملة معها سحب بلون صوف الخراف كانت تجول حائرة في سماء الصيف. وحل محلها سحابة عارمة.. سحابة رعدية في حجم الجبال، دارت فوق البيت مثل ظل ألقته السماء.

كان في قلبها الأسود برق. وفيه أمطار خفيفة تأتي في الصباح الباكر لترعى بذور فصل الربيع.. وفيها ضباب الخريف، والثلج الذي يتساقط في منتصف ليل الكريسماس على البيت. سقط الثلاثة جميعًا في وقت واحد، مطر وثلج وضباب، لكنها لم تغطي وجه الشمس. كانت لتقتل الزهور على المنحدر من بردها، لكن الرياح الساخنة وصلت إليها أولاً، لتمرق بين الزهور بقوة حتى إن كل الأوراق انتزعت وطارت في الهواء.

وهو واقف بين هذا المد من الرياح والستار الثلجي والسحاب، كان "هارفي" قادرًا بالكاد على الوقوف مستقيمًا. لكنه غرس قدميه مباعدًا ما بينهما، وقاوم كل هبات الرياح، مصممًا على ألا يتخذ ملجئًا. قد يكون هذا المشهد هو آخر ما تقع عليه عينه كروح حرة، كروح حية. وكان مصممًا على الاستمتاع به. كان مشهدًا يستحق التأمل، صراع لم تر الأرض مثله من قبل قط. إلى يسارها اخترقت أشعة الشمس سحب العاصفة منادية باسم الصيف، لكن ضباب الخريف خفف من قوتها، بينما إلى يمينه أعلن الربيع عن نفسه بإخراج البراعم من الأرض، ليرى جليد الشتاء يقتلها قبل أن تظهر لها ألوانًا.

هجوم بعد هجوم، كر وفر، لكن ولا فصل قادر على الاستيلاء على اليوم. سرعان ما أصبح من المستحيل التمييز بين الهزائم والانتصارات. اختلط كل شيء وذاب الثلج في المطر وهو يسقط، وغلت الأمطار متحولة إلى بخار، وتحولت ثانية إلى مياه بعد أن استقرت على الأرض.

وفي مكان ما وسط هذه الفوضى رفعت القوة التي جلبت كل هذا صوتها مطالبة إياها بالتوقف.

صاح البيت "هود": "كفى! كفى!"

لكن صوته، الذي كان يحمل ذات مرة قوة مخيفة أصبح ضعيفًا. مضت أوامره دون انتباه لها، ولو أعيرت انتباهًا فلم تعرضت للعصيان.

استمرت الفصول في العربدة، وهي تلقي بنفسها على بعضها البعض في سخاء نادر، ومرت تمزق البيت الواقف وسطها في أرض معركتها.

تطايرت الجدران بفعل الرياح الغاضبة بعد أن بدأت قوة "هود" تتلاشى. وضرب البرق المداخن ليسقطها، وأصيبت قضبان البرق مرات عديدة حتى إنها ذابت وسقطت عبر السقف الخالي من الطوب في مطر حارق، لتشعل النيران في كل شيء، من الأرضيات إلى الدرابزين، إلى الأثاث. وتحولت الشرفة الأمامية المصابة بوابل البرد إلى ما يشبه خشب أعواد الثقاب.

وانهار سلمها الذي ارتجف من أساسه تحت وطأة التراب المتراكم فوقه مثل برج مصنوع من أوراق اللعب.

وهو يضيق عينيه محاولاً النظر عبر العاصفة العارمة رأى "هارفي" كل هذا، وسر له. حضر إلى البيت متمنيًا الاستيلاء على السنوات التي أخذها

"هود" بعد أن خدعه، لكنه لم يجرؤ قط على أن يحلم بإسقاط السحر كله. لكن ها هو ذا، يسقط وهو يراقبه. ورغم ارتفاع صوت جلبة الرياح والرعد، فلم تتمكن من إسكات صوت البيت وهو يحتضر ويتحول إلى تراب. كل مسمار وطوبة وحجر فيها بدت كأنها تصرخ في نفس الوقت، صرخة ألم لا يعزيها سوى الهلاك.

حُرم "هارفي" من رؤية لحظات "هود" الأخيرة. نهضت سحابة من التراب لتغطي المشهد عن العيون. لكنه عرف أن معركته مع الملك مصاص الدماء قد انتهت؛ لأن الفصول المتحاربة توقفت وتحولت إلى حالة سلام. خفف البرق من غضبه وتراجع، وتحولت الأمطار إلى رذاذ خفيف، وخففت الشمس من قوتها واخفت نفسها خلف الضباب.

كان هناك حطام في الهواء، أوراق زهور وأشجار، وتراب وغبار. سقطت مثل أمطار قادمة من حلم، رغم أن سقوطها جاء لينهي حلمًا.

قالت السيدة "جريفين": "آه يا طفلي.."

التفت "هارفي" إليها. كانت واقفة على مسافة ياردات قليلة منه، وهي تحدق في السماء. كان هناك بقعة زرقاء صغيرة فوق رؤوسهم. أول علامة على سماء حقيقية تراها هذه المساحة من الأرض منذ أسس "هود" إمبراطوريته من الأوهام. لكن لم تكن السماء الزرقاء هي التي تراقبها، بل تجمع من الأضواء الطائرة، نفس الأضواء التي رأى "هارفي" "هود" يتغذى عليها في العلية، والتي تحررت مع انهيار البيت. أخذت تسير في مسار ثابت إلى البحيرة.

قالت وصوتها يخفت: "أرواح الأطفال.. جميلة".

لم يعد جسدها صلبًا كما رأى "هارفي"، وأخذت تتلاشى أمام عينيه.

غمغم: "لا".

أبعدت عينيها عن السماء وحدقت في ذراعيها، وفي القطة التي تحملها بينهما. بدأت هي الأخرى تتلاشى.

قالت السيدة "جريفين" وابتسامة ترتسم على وجهها الواهن: "انظر إلينا. إنه إحساس رائع".

"لكنك تختفين".

قالت: "بقيت هنا كثيرًا يا ولدي الحبيب". كان على وجهها دموع، لكنها دموع الفرح، وليس الحزن.. "حان وقت الرحيل.." وأخذت تربت على القطة الشوربة وكلاهما تتلاشى عن العيون. قالت: "أنت أسطع روح أقابلها يا هارفي سويك. استمر في السطوع، هلا فعلت؟"

تمنى "هارفي" لو كان لديه كلمات يقنعها بها بالبقاء قليلاً. لكن حتى ولو كانت لديه هذه الكلمات، فهو يعرف أن من الأنانية أن ينطقها. للسيدة "جريفين" حياة أخرى تمضي إليها، حيث تسطع الأرواح.

قالت: "وداعًا يا طفلي.. حيثما أذهب فسوف أتكلم عنك بالحب".

ثم تلاشى جسدها تمامًا، تاركة "هارفي" وحده وسط الأطلال.

* * *

24- سارق غر

لم يبق وحده طويلاً. ما إن تلاشت السيدة "جريفين" والقطة حتى سمع "هارفي" صوتًا ينادي اسمه. كان الهواء مليئًا بالغبار ودقق النظر بحثًا عن المنادي. لكن بعد قليل وجدها، وهي قادمة تتعثر نحوه.

- "اللولو؟"

قالت ضاحكة ضحكة صغيرة: "من غيرها؟"

كانت مياه البحيرة المظلمة ما زالت تغرقها من قمة رأسها حتى أخمص قدميها، لكنها وهي تجري على جسدها وإلى الأرض تلاشت آخر بقايا قشورها الفضية. وعندما فتحت ذراعيها له كانتا ذراعين آدميتين.

قال وهو يجري إليها ويحتضنها بقوة: "أنت حرة! لا أصدق.. أنت حرة!"

قالت وهي تختلس نظرة ناحية البحيرة: "جميعنا أحرار".

رأى مشهدًا غريبًا: مجموعة من الأطفال الضاحكين يخرجون ناحيته من الضباب. أقربهم إليه كان قد عاد إلى شكله الآدمي، ومن خلفه ما زال في طور التحول من سمكة إلى طفل خطوة بخطوة.

قال "هارفي" ناظرًا تجاه الجدار: "علينا جميعًا أن نخرج من هنا. لا أعتقد أننا سنواجه مشكلة في عبور الضباب الآن".

رأى أحد الأطفال خلف "اللولو" صندوقًا من الملابس وسط ركام البيت، وأعلن اكتشافه للجميع، متعثرًا في البقايا الرثة باحثًا عن شيء يرتديه. تركت "اللولو" "هارفي" منضمة إلى البحث، لكن ليس قبل أن تطبع قبلة سريعة على وجنته.

قال صوت من التراب: "لا تتوقع قبلة مني!" وخرج "ويندل" مبتسمًا من أذن إلى الأخرى.. "ماذا فعلت يا هارفي؟" سأله وهو يمسح الفوضى بعينيه.. "أسقطت المكان طوبة طوبة؟"

قال "هارفي" وهو غير قادر على إخفاء فخره بنفسه: "شيئًا كهذا".

ثم سمعوا صوت زئير من ناحية البحيرة.

تساءل "هارفي": "ما هذا؟"

قال "ويندل": "المياه تختفي".

- "أين؟"

هز "ويندل" كتفيه وقال: "ومن يهتم؟ ربما الجحيم يمتصها!"

وهو متلهف على رؤية ما يجري سار "هارفي" ناحية البحيرة، وعبر سحابة التراب في الهواء رأى أنها تحولت إلى دوامة، ومياهها الساكنة أخذت تدور في جنون حول نفسها.

سأل "ويندل": "ماذا حدث لهود بالمناسبة؟"

قال "هارفي" ومشهد الدوامة قد جمده: "رحل.. رحلوا جميعًا".

وبينما الكلمات تفارق شفتيه سمع صوتًا يقول: "ليس تمامًا".

التفت مبتعدًا عن المياه، ووسط الركام كان "ريكتوس" واقفًا. كانت سترته الجميلة قد تمزقت وصار وجهه أبيض بالتراب. بدا مثل المهرج، مهرج ضاحك.

سأله: "والآن لماذا أرحل؟ فنحن لم نودع بعضنا".

حدق "هارفي" فيه وعلى وجهه دهشة. رحل "هود"، وكذا سحره. كيف نجا "ريكتوس" بعد اختفاء سيده؟

قال "ريكتوس" وهو يمد يديه إلى جيبه: "أعرف فيما تفكر. أنت تتساءل لماذا لم أمت وأرحل. حسن، سأخبرك. قمت ببعض التخطيط". ثم أخرج من جيبه كرة زجاجية ارتجفت كأن فيها شعلات عشر شمعات وقال: "سرقت قطعة صغيرة من سحر الرجل العجوز، في حالة مل مني وحاول إنهاء تعاستي". ثم رفع الكرة إلى وجهه الخبيث وأكمل:

"لديّ هنا قوة كافية لإبقائي على قيد الحياة سنوات وسنوات. سنوات كافية لبناء بيت جديد، والاستكمال حيث توقف هود. لا تحزن هكذا يا فتى. لدي مكان من أجلك.. هنا.." ثم ضرب على فخذيه وقال: "يمكنك أن تكون كلبي المدلل. سأخرجك تبحث عن الأطفال لتجلبهم إلى البيت لعمو ريكتوس". ثم ضرب على فخذه ثانية وأضاف: "هيا! لا تضيع وقتي. أنا لا.."

ثم سكت، وتحولت نظرته إلى الركام الواقع تحت قدميه. فارقته همسة فزع: "لا.. أرجوك.."

وقبل أن ينهي رجائه خرجت أصابع عملاقة من بين الركام وأمسكت بحلقه، وجرته معها إلى التراب في حركة سريعة.

قال صوت صادر من الأرض: "ملكي! ملكي!"

كان صوت "هود"، عرف "هارفي" هذا. لا يوجد صوت آخر على الأرض بهذا العمق.

صارع "ريكتوس" قبضة خالقه المحكمة حوله، وهو يفتش بيديه في الركام بحثًا عن سلاح ما. لكنه لم يجد أي شيء. كل ما كان لديه هو مهارته في الإقناع.

قال: "السحر لك! كنت أحافظ عليه من أجلك!"

قال الصوت المرتقي من الظلام: "كذاب!"

- "حقًا! أقسم لك!"

قال "هود": "هاتها إذن!"

سأله "ريكتوس" وصوته أجش مختنق: "أين أضعها؟"

خف إحكام قبضة "هود" عليه قليلاً فتمكن من النهوض على ركبتيه.

قال "هود" وهو يمسك بياقة "ريكتوس" بأصغر أصابعه بينما إصبعه السبابة يشير إلى الركام: "هنا.. اسكبها على الأرض".

- "لكن.."

- "على الأرض!"

ضغط "ريكتوس" الكرة بين كفيه فتحطمت مثل كرة من السكر، ومحتواها البراق يجري بين كفيه إلى الأرض أمامه.

مرت لحظة صمت، ثم جرت رعشة في الركام.

تخلت أصابع "هود" عن أسيرها، وهب "ريكتوس" إلى قدميه. لكن لم يجد فرصة للفرار. سرعان ما تحركت قطع من الخشب والأحجار فوق أكوام الركام ناحية النقطة التي سكب عندها السحر، وارتفعت بعضها في الهواء. كل ما تمكن "ريكتوس" منه هو أن يغطي رأسه والركام المتطاير يزيد.

كان "هارفي" بعيدًا عن مسار الركام الطائر، وكان يمكنه الهروب في تلك اللحظات القليلة. لكنه كان أحكم من هذا. عرف أنه لو هرب الآن فلن تنتهي مشكلته مع "هود" أبدًا. سيكون الكابوس الذي لن يقدر على إبعاده عن عقله أبدًا. وأيًا كان ما سيحدث الآن، ومهما بلغ من البشاعة، فمن الأفضل أن يراه ويفهمه بدلاً من أن يدور على عقبيه وتسكن عقله الخيالات إلى يوم مماته.

لم ينتظر تحرك "هود" التالي طويلاً. تخلت اليد الممسكة برقبة "ريكتوس" عنها فجأة، وفي طرفة عين اختفت تمامًا. وفي اللحظة التالية انشقت الأرض وظهر كيان من تحتها، محني الظهر وهو يخرج من قبره وسط الركام.

أطلق "ريكتوس" صرخة رعب، لكنها كانت قصيرة. قبل أن يتراجع خطوة واحدة اقترب منه الكيان وتحول ليواجه "هارفي" وهو يرفع خلاصة الخائن في الهواء.

ها هو أخيرًا الشر الذي بنى بيت العطلة، يبدو إلى درجة ما أشبه بالإنسان. لكنه ليس من لحم ودم وعظام. استعمل السحر الذي وفره له "ريكتوس" مغصوبًا ليخلق لنفسه جسدًا آخر.

في أيام شره كان "هود" هو البيت. لكن الآن تحول الوضع. وأصبح البيت، أو ما بقي منه، هو السيد "هود".

* * *

25- الدوّامة

كانت عينيه مصنوعتان من المرايا المكسرة، ووجهه من الأحجار. كان على رقبته وصدره شعر كثيف من الشظايا، وأطراف من الخشب. كانت أسنانه من ألواح السقف الأردوازية المحطمة، وأظافره من المسامير الصدئة، وعليه عباءة من الملابس المتعفنة التي أخفت ظلام قلبه عن الأعين. قال متجاهلاً مقاومة "ريكتوس" اليائسة: "إذن أيها السارق.. رأيتني كما كنت كإنسان. أو نسخة من ذلك الإنسان. هل هذا ما توقعته؟"

قال "هارفي": "أجل. ما توقعته تماماً".

- "حقاً؟"

قال "هارفي": "أنت قذارة وطين وبقايا وغبار.. أنت لا شيء!"

قال "هود": "لا شيء؟ لا شيء؟ ها! سأريك يا سارق! سأريك ماذا أكون".

قال "ريكتوس" شاهقاً: "دعني أقتله لك. لست بحاجة لأن تتعب نفسك! سأفعلها أنا!"

قال "هود" محولاً عينيه إلى خادمه: "أنت من جلبه إلى هنا، وأنت الملوم!"

"إنه مجرد طفل. يمكنني التعامل معه. فقط دعني أفعلها! دعني.."

قبل أن ينهي "ريكتوس" كلمته أمسك "هود" برأسه، وبحركة صغيرة بسيطة خلعه. تصاعدت سحابة مصفرة من الهواء نتن الرائحة من الرقبة

المقطوعة، وهلك "ريكتوس"، آخر خدم "هود"، في ثانية. ترك "هود" الرأس فطارت في الهواء مثل بالون فك خيطه، وأخذت تصدر أصواتًا كأن الهواء يفرغ منها وهي تدور وتدور حتى سقطت على الأرض أخيرًا، وقد فرغت تمامًا من الهواء.

أسقط "هود" الجسد بلا اهتمام، فانكمش متحولاً إلى لا شيء، وأدار عينه إلى "هارفي".

قال: "والآن أيها السارق.. سترى القوى!"

انتصب شعر رقبته المكون من الشظايا على آخره، كأن كل شعرة مستعدة لاختراق قبل "هارفي". إنفتح فمه كالنفق، وخرج هواء قاسي بارد كالثلج من بطنه.

زأر وهو يفتح ذراعيه: "اقترب".

تطايرت قطع الملابس من حوله وانتشرت مثل أجنحة مصاص دماء قديم، مصاص دماء أعتاد أن يتغذى على دماء الديناصورات.

قال ثانية: "تعال! أم عليّ أن آتي أنا؟"

لم يضيع "هارفي" جهده على الرد. كان بحاجة إلى كل نفس لديه ليتغلب على هذا الرعب. وهو غير واثق في أي اتجاه يمضي، دار على عقبيه وجرى، ثم ضربته دفقة ثانية من الهواء المجمد للروح. كانت الأرض زلقة بكل الركام المكوم فوقها. سقط بعد أن قطع ست خطوات، ونظر خلفه ليرى "هود" ينقض عليه وهو يصرخ صرخة حاقدة. رفع نفسه إلى قدميه واخطاته أظافر "هود" الصدئة، ثم ابتعد ثلاث خطوات عن ظل "هود" حيث سمع "الولو" تنادي اسمه.

نظر تجاه صوتها، لكن "هود" أمسكه من ياقة معطفه.

زأر قائلاً: "أمسكتك أيها السارق"، وهو يجر "هارفي" ثانية إلى حضنه القاتل.

لكن قبل أن يحكم "هود" قبضته، ألقى "هارفي" بذراعيه للخلف ودفع نفسه للأمام. انخلع المعطف، وجرى للمرة الثالثة إلى الحرية، وعيناه ثابتتان على "الولو" التي أخذت تحثه على التقدم.

كانت واقفة على طرف البحيرة، على قيد بوصات قليلة من مياهها الفائرة. بالطبع هي لا تتخيل أن بإمكانهم الهروب إلى البحيرة! ستمزقهم الدوامة إربًا.

صاح في "الولو": "لا يمكننا هذا!!"

قالت: "علينا هذا! إنها المخرج الوحيد!"

أصبح على مسافة ثلاث خطوات منها الآن. تمكن من رؤية قدمها الحافية تنزلق على الأحجار الزلقة وهي تكافح للحفاظ على توازنها. مد يده إليها مصممًا على انتزاعها من مجلسها قبل أن تسقط، لكن عينيها لم تكن عليه. كانت على الوحش خلفه. صاح فيها: "الولو! لا تنظري!"

لكن نظرتها ثبتت على "هود" وانفتح فمها على اتساعه، ولم يقدر "هارفي" على مقاومة النظر خلفه ليرى ماذا يسحرها.

مزق "هود" عباءته تمامًا وسط مطاردته وجريه، وكان هناك شيء بين طياتها، أحلك من سماء ليلية أو قبو بلا أنوار. ما هذا؟ سر أسرار سحره ربما يحمي قلبه الخالي من الحب؟

قال "هود" وهو يدفع "هارفي" إلى الصخور إلى جانب "لولو": "هل تستسلم؟ بالطبع لن تختار الدوامة وتفضلها عليّ!"

غمغم "هارفي" لـ"لولو" ونظرته ثابتة على السر الواقع وراء عباءة "هود": "الذهبي.."

ترك يدها تمسك بيده للحظة ثم قالت: "إنها المخرج الوحيد". ثم تخلت عنه أصابعها، ووجد نفسه واقفًا على الصخور وحده.

قال "هود": "إذا اخترت الطوفان ستموت ميتة بشعة. سيمزقك إربًا. أما أنا.." ثم مد يده "هارفي" وهو يخطو إلى الصخور وأضاف: ".. فأقدم لك الموت الرحيم، وأنا أهدهدك على فراش من الأوهام".

ثم ابتسم، كان أبشع مشهد يراه "هارفي" قط.. "اختر".

ومن طرف عينه رأى "هارفي" "لولو".

لم تهرب كما حسب، ذهبت تبحث عن سلاح. ووجدت واحدًا، قطعة خشب أخرجتها من بين الركام. لا تجدي نفعًا أمام ضخامة "هود"، وعرف "هارفي" هذا، لكنه سر لأنه ليس وحيدًا في تلك اللحظات الأخيرة. نظر إلى وجه "هود" وقال: "ربما الأفضل أن أنام.."

ابتسم الملك مصاص الدماء وقال: "سارق صغير حكيم"، وهو يفتح ذراعيه داعيًا الولد إلى ظلاله.

تقدم "هارفي" خطوة على الصخور ناحية "هود"، رافعًا يده. انعكس وجهه في المرايا المحطمة المكونة لعينا مصاص الدماء.. لصان في رأس واحدة. قال "هود": "نم".

لكن "هارفي" لم تكن لديه نية النوم بعد. قبل أن يتمكن "هود" من إيقافه، أمسك بعباءة الكائن وجذبه. سقطت الملابس متمزقة، وأطلق "هود" عواء غضب وهو ينكشف.

لم يكن في قلبه سحر عظيم.

في الواقع، لم يكن هناك قلب بالمرة. كان هناك فراغ، لا بارد ولا ساخن، لا حي ولا ميت، ليس مصنوعًا من الغموض، بل من العدم. وهم صانع الأوهام.

وقد انكشف مع انكشاف هذا السر، أطلق "هود" زئير غضب آخر، ومد يده ليعيد لف العباءة حوله مستعيدًا إياها من يد السارق. لكن "هارفي" تراجع خطوة متفاديًا الأصابع بمقدار شعرة. اقترب منه "هود" غاضبًا، تاركًا "هارفي" بلا خيار غير التراجع خطوة أخرى، حتى لم يعد أمامه غير الطوفان.

ومرة أخرى مد "هود" يديه إلى البقايا الرثة، وكان ليمسك بالعباءة والسارق لولا أن "لولو" جرت إليه من الخلف ورفعت قطعة الخشب مثل مضرب بيسبول.

ضربت ركبة "هود" من الخلف بقوة حتى إن سلاحها تحطم، وأسقطها أثر الضربة على الأرض.

لكن الضربة لم تمض دون تأثير. أفقدت "هود" توازنه، وأخذ يحرك يديه بقوة، وهز الطوفان الصخرة التي وقف عليها مع "هارفي" مهددة كليهما بالسقوط في قلب العاصفة. وحتى تلك اللحظة كان "هود" مصممًا على استعادة عباءته من "هارفي" ليخفي بها فراغه. عوى قائلاً: "أعطني عباءتي أيها السارق!"

صاح "هارفي" وهو يلقي بالعباءة المسروقة إلى المياه: "إنها لك!"

اندفع "هود" خلفها، وهو يفعل هذا عاد "هارفي" قافزًا إلى الأرض الصلبة. سمع "هود" يصرخ من خلفه، والتفت ليرى الملك مصاص الدماء والعباءة في يده وهو يسقط برأسه في المياه الفائرة.

ارتفت الرأس فوق المياه للحظة، وتوجه "هود" إلى الضفة، لكن رغم قوته كانت الدوامة أقوى. جذبته بعيدًا عن الصخور، وقربته من مركزها، حيث تدور المياه إلى الأعماق.

وسط رعبه بدأ يستجدي المساعدة، لكن مساومته لم تكن مسموعة إلا حين تقربه الدوامة من حيث يقف "هارفي" و"الولو".

صاح: "أيها السارق! ساعدني، وسـ.. سأمنحك.. العالم! للأبد.. للأبد.."

ثم بدأت المياه في عنفوانها تمزق جسده، وتقطع أظافره وتخلع أسنانه، وتزيل شعره المكون من الشظايا، وتخلع أطرافه من مفاصله.. حولته إلى بقايا من الركام، وغرق في المياه البيضاء في قلب الدوامة، وهو يصرخ غاضبًا، ومضى إلى حيث يمضي البشر في النهاية: إلى العدم.

وعلى الشاطئ ألقى "هارفي" بذراعه حول "الولو" وهو يضحك ويبكي في نفس الوقت.

قال: "فعلناها.."

قال صوت من خلفهما: "ماذا فعلتما؟" ورأيا "ويندل" يقترب منهما، لا مباليًا كعهدهما به. وكل قطعة ملابس وجدها في الركام إما صغيرة أو كبيرة عليه.

تساءل: "ماذا جرى هنا؟ لماذا تضحكان؟ لماذا تبكيان؟" نظر إلى خلف "هارفي" و"لولو" ليرى آخر بقايا جسد "هود" تختفي وسط عواء أخير.. "وما هذا؟!"

مسح "هارفي" الدموع من على وجنتيه ونهض إلى قدميه. أخيرًا وجد استخدامًا لرد "ويندل" الأبديّ.

قال: "ومن يهتم؟"

* * *

26- دليل حيّ

ما زال جدار الضباب حيث هو على أطراف أرض "هود"، وعنده حيث تجمع الناجون ليودعوا بعضهم. لم يعرف أيهم المغامرات الواقعة على الجانب الآخر من الضباب بالطبع. فقد وصل كل من الأطفال إلى البيت في سنة مختلفة. هل سيجدوا عصرهم ينتظرهم على الجانب الآخر؟

قالت "الولو" وهم يجهزون أنفسهم للخروج من الضباب: "حتى إن لم نستعد السنوات المسروقة، فنحن أحرار بفضلك يا هارفي".

صدر عن الجمع غمغمات الشكر، وبعض دموع الامتنان.

همس "ويندل" لـ"هارفي": "قل شيئاً".

- "لماذا؟"

- "لأنك بطل".

- "لا أشعر بهذا".

- "إذن قل لهم هذا".

رفع "هارفي" يديه ليسكت الغمغمات وقال: "أريد فقط أن أقول.. إننا سننسى إقامتنا هنا بعد فترة وجيزة على الأرجح.." قال بعض الأطفال: "لا، أنا لن أنسى، أو: سنتذكرك على الدوام". لكن "هارفي" قال بإصرار: "سنفعل.. سنكبر وننسى. ما لم.."

سألته "الولو": "ما لم ماذا؟"

- "ما لم نذكر أنفسنا كل صباح. أو نكبر الموضوع ونخبر كل من نقابله".

قال أحد الأطفال: "لن يصدقنا أحد".

قال "هارفي": "هذا لا يهم. سنعرف نحن أنها الحقيقة، وهذا ما يهم".

وجد هذا القبول من كل الأطراف.

قال "هارفي": "والآن دعونا نذهب إلى بيوتنا. لقد ضيعنا وقتًا طويلاً هنا بالفعل".

ضربه "ويندل" في ضلوعه والمجموعة تتفرق: "لماذا لم تقل لهم إنك لست بطلاً؟"

قال "هارفي" بابتسامة ماكرة: "آه، أجل، نسيت هذا".

كان أول الأطفال قد تقدم من جدار الضباب بالفعل، متلهفًا على أن يخلف رعب سجن "هود" خلف ظهره في أسرع وقت ممكن. راقبهم "هارفي" وهم يختفون مع كل خطوة يخطونها، وتمنى أن يحظى بلحظة يتكلم فيها معهم، وأن يعرف من هم ولماذا وصلوا إلى قبضة "هود". وإن كانوا أيتامًا بلا مكان يسمونه بيتًا أو هاربين، مثل "ويندل" و"لولو"، أو ممن ملّوا من حياتهم مثلما مل هو وغرته الأوهام.

لن يعرف أبدًا.

أخذوا يختفون واحدًا وراء الآخر، حتى لم يبق سوى "لولو"، و"ويندل"، وهو خلف الجدار.

قال "ويندل" لـ"هارفي": "إذا كان الزمن قد صلح بالخارج، فسوف أخرج من هنا أكبر منك ببعض السنوات".

"هذا صحيح".

"وعندما نلتقي ثانية، سأكون قد كبرت كثيرًا. ربما لن تتعرف علي".

قال "هارفي": "سأتعرف عليك".

قال "ويندل": "هل تعدني؟"

"أعدك".

وهكذا تصافحا ومضى "ويندل" إلى الضباب. اختفى بعد ثلاث خطوات.

تنهدت "الولو" وسألت "هارفي": "هل سبق أن رغبت في شيئين في نفس الوقت لكن عليك الاختيار بينهما؟"

قال "هارفي": "مرة أو اثنتين.. لماذا؟"

أجابت: "لأنني أود أن أكبر معك، وأن أصبح صديقتك.. لكنني أريد أيضًا أن أذهب إلى البيت. وأعتقد أنه في السنوات التي تنتظرني على الجانب الآخر من الجدار أنك لم تكن قد ولدت بعد".

أومأ "هارفي" برأسه بحزن ونظر ثانية إلى الأطلال وقال: "أعتقد أن لدينا شيء نشكر هود عليه".

"ما هو؟"

قال وهو ما زال ممسكًا بيدها: "أننا كنا أطفالاً معًا.. على الأقل لفترة قصيرة".

حاولت "الولو" الابتسام لكن عينيها فاضتا بالدموع.

قال "هارفي": "دعينا نخرج معًا إلى أقصى مسافة ممكنة".

أجابته "الولو": "أجل، أود هذا". ثم وهما متشابكا الأيدي سارا ناحية الجدار. وفي نفس اللحظة قبل أن يبتلعهما الضباب نظرا إلى أحدهما الآخر وقال "هارفي": "البيت.."

ثم خطيا إلى الجدار. وفي الخطوة الأولى شعر بيد "الولو" في يده، لكن في الثانية خفت القبضة، وفي الثالثة خرج إلى الشارع واختفت هي تمامًا، وقد عادت إلى زمانها قبل فصول عديدة.

رفع "هارفي" عينيه إلى السماء. كانت الشمس تغرب، وضوءها الأحمر ما زال يخترق حجب السحاب فوقه. كانت الرياح عاصفة، وبردت عرق الخوف والتعب من على وجهه وظهره.

وأسنانه تصطك سار في طريقه إلى البيت وسط الشوارع المظلمة، غير واثق مما ينتظره.

كان غريبًا أن بعد كل هذه الانتصارات يجد السير إلى البيت يكاد يهزمه، لكنه هزمه فعلاً. وبعد ساعة من المشي انهارت قوته الجسدية والعقليّة التي حفظته من كل شر تمكن "هود" من بعثه. بدأ رأسه يدور، وساقيه تنهاران تحته، وسقط على الرصيف متعبًا.

ومن حسن الحظ أن مارين أشفقا عليه، وسألاه برفق أين يسكن. كان الأمر خطيرًا، أن يثق في أغراب، لكن لم يكن أمامه خيار. كل ما قدر عليه أن يسلم نفسه لعنايتهما، ويتمنى أن يكون في العالم الذي عاد إليه بعض الشفقة.

أفاق من نومه في الظلام، وللحظة توقف قلبه فيها تخيل أن البحيرة السوداء قد استولت عليه بعد كل شيء، وأنه في أعماقها سجينًا.

نهض وهو يصرخ من الرعب، وتنفس الصعداء عندما رأى النافذة المواجهة لسريره، والستائر منفرجة قليلاً. وسمع الأمطار تهطل على السقف. كان في البيت. أرجح ساقيه نازلاً عن السرير ووقف. كان جسده كله يؤلمه كأنه لعب عشر جولات ملاكمة، لكنه كان قويًا بما يكفي ليسير إلى الباب ويفتحه.

وصله الصوتان المألوفان من الدور السفلي.

سمع أمه تقول: "أنا مسرورة لعودته إلى البيت".

قال أبوه: "وأنا أيضًا، لكننا بحاجة لبعض التفسيرات".

وهو ممسك بالدرابزين أثناء نزوله، سمع أمه وأباه مستمران في الحديث. قال أبوه: "نحن بحاجة لمعرفة الحقيقة بسرعة. أعني لنفترض أنه متورط في جريمة ما؟"

- "ليس هارفي".

- "بل يمكن. رأيت الحالة التي جاء عليها. دماء وتراب على جسده.. إنه لم يخرج ليقطف الزهور، وهذا أكيد".

وقف "هارفي" عند مهبط السلم، وهو خائف قليلاً من مواجهة الحقيقة. هل تغير أي شيء أم أن هذان الشخصان اللذان ما زال لا يراهما عجوزان وهشان؟

مضى إلى الباب ودفعه. كانت أمه وأبيه واقفين وظهريهما له عند النافذة، وهما يحدقان في المطر.

قال: "أهلاً".

التفتا إليه في نفس اللحظة، وصدر عن "هارفي" صيحة فرح عندما رأى أن كل الرعب الذي تحمله في البيت لم يذهب سدى. كانت أمه وأبيه ما زالا على حالهما كما كانا قبل أن يأتي "ريكتوس" إليه. عادت السنوات المسروقة إليه. قال وكأنه يوجه الكلام لنفسه: "أنا سارق جيد".

قالت أمه وهي تقترب منه فاتحة ذراعيها: "آه يا حبيبي".

احتضنها أولاً، ثم احتضن أباه.

قال أبوه: "ماذا فعلت يا بني؟"

تذكر "هارفي" كم كان صعبًا أن يشرح لهما المرة الماضية؛ لذا فبدلاً من أن يحاول الشرح قال: "خرجت أتجول قليلاً وضللت الطريق. لم أقصد أن أزعجكما".

- "قلت شيئًا عن السرقة".

- "حقًا؟"

قال أبوه بصرامة: "تعرف أنك قلتها".

سأله "هارفي": "حسن.. هل أعد لصًا لو أخذت شيئًا هو ملكي في الأساس؟"

تبادل أبوه وأمه نظرات حيرى. قالت أمه: "لا يا حبيبي. بالطبع لا".

أجاب "هارفي": "إذن فأنا لست سارقًا".

قالت أمه: "أعتقد أنك تدين لنا بإخبارنا الحقيقة يا هارفي. نريد معرفة كل شيء".

- "كل شيء؟"

قال أبوه: "كل شيء".

وهكذا أخبرهما القصة كاملة، كما سألاه أن يفعل، منذ البداية، وإن كان تعبير وجهيهما متعجبًا المرة الماضية التي حكى فيها حكايته، فقد كانا لا يصدقانه بالمرة الآن. قاطعه أبوه وهو يحكي عن لقائه بـ"هود" في العلية: "هل تتوقع منا حقًا أن نصدق كل هذا؟"

قال "هارفي": "يمكنني أن أدلكما على البيت. أو حيث تركته. لم أتمكن من العثور عليه المرة السابقة؛ لأنه أخفى نفسه عن الكبار. لكن هود رحل، ولم يعد هناك سحر باق فيه يخفيه".

ومرة أخرى تبادل أبوه وأمه نظرات الاستنكار والاستعجاب. قال أبوه: "إذا وجدت بيت هود فنحن نود أن نراه".

خرجوا صباح اليوم التالي، وهذه المرة، وكما توقع "هارفي" لم يخف الطريق إلى البيت نفسه بالسحر. وجد الشوارع التي قاده "ريكتوس" عبرها للمرة الأولى بسهولة، وسرعان ما تبدى للأعين التل الذي انتصب عليه البيت يومًا. قال لأبيه وأمه: "هذا هو.. كان البيت واقفًا هناك".

قال أبوه: "إنه مجرد تل يا هارفي.. تل مغطى بالعشب".

كانت بالطبع مفاجأة أن يرى الأرض التي وقعت عليها أحداث كثيرة مفزعة وقد اخضرَّت بهذه السرعة.

قالت أمه وهم يقفون في المكان الذي كان جدار الضباب قائم فيه: "بل إنه يبدو جميلاً".

قال "هارفي" وهو يتقدم من المنحدر: "الأطلال تحت هذا العشب، أقسم على هذا. سأريكما. تعالا".

لم يكونوا الزوار الوحيدين يومها. كان هناك عدد ممن يطيرون الطائرات الورقية عند قمة الجرف، وكلاب كثيرة تجول بالمكان، وأطفال يضحكون وهم يهبطون المنحدر رأسًا على عقب، وزوج من العشاق يهمسان لبعضهما.

أصيب "هارفي" بالضيق من وجود كل هؤلاء الناس. كيف يجرؤون على اللعب والضحك وتطيير الطائرات هنا، وكأن هذا مجرد تل آخر؟ أراد أن يخبرهم جميعًا بأنهم ينسون أطلال بيت مصاص دماء، ويرى سرعة تلاشي الابتسامات من على وجوههم.

ثم إنه قال لنفسه إن الوضع هكذا أفضل، أفضل من أن تسكن التل الشائعات والحكايات. لن يأتي ذكر اسم "هود" على شفاه الأحياء ومن يطيرون الطائرات الورقية، ولماذا يذكر؟ فشره ليس له مكانًا في القلوب السعيدة.

قال والد "هارفي" وثلاثتهم يهبطون المنحدر: "هاه؟ لقد دفن بيتك هذا".

نزل "هارفي" متكئًا على ركبتيه وحفر التراب بيديه العاريتين. كانت الأرض ناعمة، وانبعثت منها رائحة الخصوبة العطرية.

قال صوت ما: "أمر غريب، أليس كذلك؟"

رفع نظره وقد كف عن العمل، ويديه ممتلئتان بالتراب. كان هناك رجل أكبر من أبيه بقليل واقف على مسافة ياردات قليلة منه وهو يبتسم.

سأله "هارفي": "عم تتحدث؟"

قال: "الزهور، والأرض. ربما للأرض سحرها الخاص، سحرها الطيب، وقد دفنت ذكرى هود إلى الأبد".

قال "هارفي": "هل تعرف بشأن هود؟"

أومأ الرجل برأسه موافقًا وقال: "أجل".

سألته أم "هارفي": "ماذا تعرف بالضبط؟ روى ابننا عنه حكايات غريبة.."

قال الرجل: "كلها صحيحة".

قال له والد "هارفي": "إنك لم تسمعها حتى".

قال الرجل: "عليكما بالثقة في ولدكما. أعرف عنه وعن ثقة أنه بطل".

حدق والد "هارفي" في ابنه وعلى شفتيه ابتسامة خفيفة وقال: "حقًا؟ هل كنت أحد أسرى هود؟"

قال الرجل: "لست أنا".

- "إذن كيف عرفت؟"

ظل الرجل بعينيه من فوق كتفيه، وعند مهبط المنحدر وقفت امرأة ترتدي ثوبًا أبيض.

تفحص "هارفي" هذه الغريبة، محاولاً التعرف على وجهها، لكن قبعتها الواسعة الأطراف أبقت ملامحها في الظلال. نهض إلى قدميه، قاصدًا إلقاء نظرة قريبة، لكن الرجل قال: "لا تفعل أرجوك. لقد أرسلتني بدلاً منها، لتحييك. إنها تذكرك كما كنت صغيرًا، وتود أن تذكرها بنفس الطريقة".

غمغم "هارفي": "اولو.."

لم يؤكد الرجل أو ينفي ما قاله. قال ببساطة لـ"هارفي": "أنا مدين لك كثيرًا أيها الصغير. أتمنى أن أكون زوجًا صالحًا لها كما كنت أنت صديقًا جيدًا".

قال "هارفي": "زوج؟"

قال الرجل وهو ينظر إلى ساعته: "كم يطير الوقت بسرعة. لقد تأخرنا على الغداء. هل لي أن أصافحك أيها السيد الصغير؟"

حذره "هارفي" قائلاً: "يدي قذرة". وهو يجري التراب بين أصابع يده اليمنى.

أجابه الرجل مبتسمًا: "وماذا أفضل من هذه الأرض الطيبة نضعه بيننا؟"

أمسك بيد "هارفي" وصافحه، وهو يومئ لأم "هارفي" وأبيه هرول أسفل المنحدر.

راقبه "هارفي" وهو يتكلم إلى السيدة المرتدية الثوب الأبيض، ورآها تومئ برأسها، ورآها تبتسم له. ثم رحلا، خرجا إلى الشارع واختفيا.

قال والد "هارفي": "يبدو أن السيد هود موجود بعد كل شيء".

سأله "هارفي": "إذن هل تصدقني؟"

جاءه الجواب: "حدث شيء ما هنا.. وكنت بطلاً. أصدق هذا".

قالت أم "هارفي": "إذن فهذا يكفي. ليس عليك أن تحفر أكثر يا حبيبي. أيًا كان ما يقع بالأسفل فعلينا أن ندعه مدفونًا".

كان "هارفي" على وشك إخلاء يده اليسرى من التراب عندما قال أبوه: "دعني آخذ هذه"، وهو يفتح يده.

قال "هارفي": "حقا؟"

جاءه جواب والده: "سمعت أن قليل من السحر مفيد أبدًا. أليس هذا صحيح؟"

ابتسم "هارفي" وأسقط حفنة التراب من يده إلى كف أبيه.

قال: "أبدًا".

كانت الأيام التالية على خلاف ما عرف "هارفي" قط. رغم أنه لم يتكلم كثيرًا عن "هود" أو عن البيت، أو عن التل الأخضر الذي وقف مكانه، فقد كان الموضوع جزءًا من كل نظرة وضحكة بينه وبين أبويه.

كان يعرف أن لديهما أقل فكرة عما حدث لهم، لكن ثلاثتهم اتفقوا على شيء واحد: كم جميل أن يرجعوا معًا ثانية.

سيصبح الوقت ثمينًا من الآن فصاعدًا. سيمضي بالطبع، كما فعل دومًا، لكن "هارفي" كان عاقدًا العزم على ألا يضيعه في التنهدات والشكاوى. سيملأ كل لحظة بالفصول التي وجدها في قلبه.. أماني مثل الطيور على أغصان الربيع، وسعادة مثل شمس الصيف الدافئة، وسحر مثل ضباب الخريف المنقشع. وأهم شيء: الحب.. حب يكفي ألف كريسماس وألف عيد.

* * *